زدني عِلماً

اندريه كريسون

مُونتَاين

حَيَاته - فلسَفته - منتخَبات

ترجَمة
نبيه صقر

منشورات عويدات
بيروت - باريس

مونتاين

حياته - فلسفته - منتخبات

اندريه كريسون

مونتاني

حياته - فلسفته - منتخبات

ترجمة

نبيه صقر

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الثالثة ١٩٨٢

حياتــه

ولد ميشال ده مونتــاني Montaigne في ٢٨ شباط سنة ١٥٣٣ في قصر مونتاني على حدود مقاطعتي دوردونيا وجيروندا (فرنسا) في حضن عائـلة حديثة النبالة . كان جده الاول ، رامون إيكويم ، قد أثرى في بوردو متاجراً بالخمر والسمك المجفف ، وكان قـد اشترى ، في اواخر ايامه ، اي قبل خمسين سنة ، تقريباً ، من مولد الفيلسوف ، اراضي مونتاني في ولاية بيريغورد. وقد ظل جده ، غريمون إيكويم ، يتعاطى التجارة كسلفه ؛ غير ان بيير إيكويم ، والد ميشال ، ترك التجارة ، وساهم في حروب ايطاليا ، ثم عاد فاقام في مونتاني حيث شاد قصراً فخماً ونال لقب نبيل . كان ميشال اول من ترك اسم عائلته واتخذ اسم مونتــاني ؛ اما والدته ، انطوانيت ده لوب ، فتنتمي الى عائلة ثرية

من يهود اسبانيا اعتنقت الديانة الكاثوليكية وهاجرت ، مع من هاجر من اليهود الذين حلوا في مختلف مدن جنوب فرنسا هرباً من الاضطهادات . وقد اعتنقت والدته ، في ما بعد ، المذهب البروتستانتي مع اثنين من اولادها واحتفظ الآخرون مع والدهم بكاثوليكيتهم .
يتحدث مونتاني عن نفسه في كتابه « محاولات » بتواتر حتى اننا لنجد في هذا الكتاب جميع عناصر سيرة حياته.

كان والده قد حمل من ايطاليا افكاراً تربوية بالغة الجدة وقد كتب ميشال في ذلك يقول :

« لقد ارغمني على حمل اطفال من أشد العائلات بؤساً ، وهم يقتبلون سر المعمودية ، لكي يضطرني الى مخالطة هذه الطبقة من البشر والى التعلق بها ... وكان قد ارسلني ، منذ المهد ، الى قرية حقيرة من قراه لاعالتي ، (وهي قرية بابسوس ، على بعد ثلاثة كيلو مترات من القصر) ، وتركني فيها طول ايام حضانتي ، وحتى ما بعدها » . كانت غاية الوالد من هذا الاجراء «إلحاقي بهذه الطبقة من البشر التي تحتاج الى معونتنا» .

كان مبدأ بيير إيكويم التربوي الاساسي تثقيف نفس الولد بعذوبة وحرية من غير اي ضغط . « لان الكثيرين يعتقدون بأن الكبت وإيقاظ الاطفال ، صباحاً ،

بعنف، واقتلاعهم ، بغتةً ، من احضان النوم ،يسجّس عقولهم ، لذلك كان يوقظني علـى انغام آلة طرب » . «لقد ترعرعت في جومفعم بالنبالة والحرية ، وخالٍ من كل تلقين صارم » .

وكان لا بد للعلم ، في هذا المنهاج ، من ان يتذوقه الولد بدون جهد ولا إعنات . لذلك ، ولكي يمتلـك ميشال ناصية اللغة اللاتينية ، يوم كان كل ادب صحيـح لاتينياً ، أو مترجماً الى اللاتينية ،اقام بيير إيكويم مثقّـفاً لابنه طبيباً المانياً يدعى هورستانوس لايعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية لان مهمته كانت تقوم بألا يتحدث الى الصغير ميشال الا باللغة اللاتينية . وكان على سكان القصر ايضاً ان يتلقنوا ما ينبغي لهم من اللاتينية لكيلا يتحدثوا الى ميشال الا بهذه اللغة . « لم يكن احد يكلمني ، لا ابي ، ولا امي ، ولا خادم ، ولا خادمة ، الا بالكلمات اللاتينية التي كانوا قد تلقونها لهذه الغاية . لقد اصبحنا لاتينيين ، جميعاً ، حتى تسربت هذه اللغـة الى القرى المجـاورة ، حيث لا يزال الكثيرون ، حتى العمال ، واصحاب المهن ، يحتفظون بتعابير واسماء لاتينيـة » . وهكذا لم يكن ميشال مونتاني ، وهو في السادسة من العمر ، « يفهم من الفرنسية والبيريغوردية اكثر مما يفهم من اللغة العربية » .

كان اولاد النبلاء يدخلون ، افواجاً ، المدارس المنظمة ، منذ قليل ، تنظيماً جديداً ؛ وقد ارسل بيير ايكويم ابنه الى مدرسة غسّيان ، في بوردو ، وكانت من اشهر مدارس العصر . كان من بين مدرسيها واساتذتها أئمة اعلام مثل غروسي ، وغيرانت ، والشاعر الايكوسي الشهير بوكانان. ومما يُذكر ان هؤلاء الاساتذة كانوا يخشون مخاطبة الطالب ميشال مونتاني باللغة اللاتينية لبراعته في التكلم بها وتعمقه في اصولها ،وكانت هي اللغة الوحيدة المستعملة في المدارس . ثم ان بيير ايكويم ، لكي يجنب ابنه الانحراف الى اللاتينية الفاسدة، أقام له « معلمي غرفة » عرفوا كيف يتركون لمونتاني حرية المطالعة لكي يقرأ بلذة ، في الخفاء ، الكتب الصعبة التي كان رفقاؤه يتطيرون منها ، ككتب تيرانس، وبلوت ، ولا سيما اوفيد .

- ان تعمق مونتاني في اصول اللغة اللاتينية أتاح له ألا يمكث في مدرسته اكثر من سبع سنوات ، وان يخرج منها مزوداً بحب المطالعة طول ايام حياته ، بينما اولاد النبلاء ، رفقاؤه ، لم يكونوا يحملون من مدرستهم سوى « بغض الكتب » .

بعد ان ترك مونتاني المدرسة دخل ، وهو في الثالثة

عشرة من العمر ، معهد الفنون الجميلة ، ومنه انتقل الى معهد الحقوق في مدينة تولوز .

كان دفع ثمن المنصب ، في ذلك العصر ، يتيح البلوغ الى منصب قاض مهما كانت السن ، لذلك استطاع مونتاني ، وهو في الحادية والعشرين من العمر ، ان يرقى الى منصب مستشار في « محكمة المساعدين » في مدينة بيريغو ؛ وبعد ثلاث سنين ، ارتقى الى منصب مستشار في محكمة العدل العليا في بوردو حيث شغل هذه الوظيفة مدة خمسة عشر عاماً ، تقريباً .

بيد ان مهامّ هذه الوظيفة لم تكن لتحلو كثيراً في عيني مونتاني ، فحينما يتكلم عن القضاة ، وعن الشرائع وشوائبها ، وحينما ينتقد التعذيب ، ودعاوى السحر ، نشعر بان المتكلم قاضٍ قديم له كل سلطة الاختبار ، فقد كتب يقول : « كم شهدتُ أحكاماً أكبر جرماً من الجرم ! » ؛ وايضاً : « ها انا «كألسيبياد» لا استطيع ان اتصورني مدفوعاً الى رجل يستطيع ان يتحكم بمصير رأسي ؛ ها انا حيث شرفي وحياتي يخضعان لارادة المدعي العام اكثر مما يخضعان لبراءتي » .

كان الوسط القضائي وسطاً مثقفاً ، وكان القضاة يتبارون في الادعاء بحب الأدب ؛ فان لم يطب لمونتاني

ما كانت تفرضه عليه وظيفته ، فقد كان يطيب له هذا الوسط الادبي حيث التقى « خلال احتفال شعبي » الصديق الذي ما برح اسمه ، منذ ذاك ، مقترناً باسم مونتاني ، ونعني به : إتيان ده لابويسي ؛ وقد كتب مونتاني في ذلك يقول : « لقد أخذ كل منا بالآخر حالما التقينا كأننا كنا، دائماً ، معاً، وكأننا لم يفترق احدنا ، يوماً ، عن الآخر . فلو قيل لي : لماذا كنت تحبه ، لما استطعت ان أدلي الا بهذا الجواب : لانه كان هو ؛ لانني كنت انا » .كان لا بويسي اكبر سناً بسنتين او بثلاث سنوات من مونتاني ؛ وكان هو ، ايضاً مستشاراً في محكمة العدل العليا ، وقد أثر تأثيراً عميقاً في تفكير مونتاني بيد ان اتصالهما لم يدم اكثر من اربعة اعوام اذ قضى لابويسي نحبه ، سنة ١٥٦٣ موبوءاً .

إن ما كان مونتاني معجباً به في لابويسهو« ان نفسه كانت من الطراز القديم » ، اي انه كان يتتبع فضائل الأقدمين . واقد ظل ذكر لابويسي هكذا حياً في نفس مونتاني حتى ان مجرد ذكر صديقه الراحل ، بعد ثمانية عشر عاماً ، كان يملأ نهاره أسى وكآبة .

بعد سنتين من وفاة لابويسي ، تزوج مونتاني ، في

٢٣ ايلول سنة ١٥٦٥ ، من ابنة احد زملائه في القضاء وتدعى فرانسواز دولاشا سيني ؛ ولقد اعترف مونتاني بانه ترك الآخرين يقودونه الى الزواج « بـدلاً من ان يذهب ، هو ، اليه بدافع العاطفة » : فقد كان زواج مصلحة من ابنة غنية ، وقد كتب مونتاني في ذلك يقول :

« يرفض الزواجُ العقلي شرطَ الحب ... فالعلائق والوسائط تعمل في هذه الصفقة اكثر مما يعمل اللطف والجمال » . وقد رُزق مونتاني من هذا الزواج عدة بنين كانوا يتوفون ، جميعاً ، في المهد إلا ابنة واحدة ، ليونور ، التي وُلدت في الخامس عشر من ايلول ١٥٧١ ، والتي كلّف امها ومربيتها باعالتها والاعتناء بها ، اذ كان يقول : « للبوليس النسائي طريقة سرية خاصة ، يجب ان تترك لهن » .

- لم يكن مونتاني يجد لذة في ممارسة وظيفته وقد تركها في اول فرصة سنحت له ، ثم قدم الى باريس سنة ١٥٥٩ ورافق الملك فرنسوا الثاني وحاشيته الى « بار ليدوق » . وفي سنة ١٥٦١ أرسل بمهمة قضائية الى باريس ، هذه المدينة التي كان يحبها « حتى قروحها ،

وحتى ادرانها » ؛ ثم رافق حاشية الملك ثانية الى حصار مدينة روان وظل غائباً عن بوردو ، كما يظهر ، اكثر من سنة .

حينما توفي بيير ايكويم في حزيران سنة ١٥٦٨ ، هذا الوالد « الذي لم يكن والد افضل منه قط » ورث ميشال ده مونتاني ، بصفته الابن البكر ، قصر مونتاني واراضيه ومبلغاً ضخماً من المال . وكان لأمه ، بحسب وصية والده ، « الحق ، طول حياتها ، بان يعنى بها العناء التام مع الاكرام التي كانت تحاط به على حياة زوجها » . وكان يعيش ايضاً ، في القصر شقيقتا مونتاني وشقيقه الاصغر ، برتران ، الذي اصبح ميشال وصياً عليه . اما اشقاؤه الثلاثة الأخر ، فقد اقاموا في الاملاك التي ورثوها .

اخذ ميشال ده مونتاني مهمته كسيد الميراث بعين الجد ، وجهد في اقتصاد المال « معتبراً ان ما يدّخره المرء علاوة على ما ينفقه هو ما يملكه حقيقة » . ولكنه لم يلبث ان مل ادارة املاكه لان هذه الادارة « تجلب قلقاً كبيراً » بالاضافة الى جهله كل الجهل اشغال الحراثة . من جهة ثانية ، كان ملله من مهمته كمستشار يزداد

اكثر فاكثر حتى باع وظيفته ، سنة ١٥٧٠ ، الى احد اصدقائه المقربين اليه ، وهو فلوريموند ده ريموند ، الذي ترك لنا كتابات على حواشي نسخة من كتاب «محاولات» يبوح لنا فيها ببعض عادات مونتاني . بعد ان استعاد مونتاني حريته جاء الى باريس حيث اعتنى بطبع آثار صديقه لابويسي واهداها الى شخصيات بارزة ، ونال لقب نبيل في غرفة الملك . فهل اراد ، بمسعاه هذا ، تجسيد حلم اجداده ومحو كل اثر من اصله الوضيع؟ ولكنه كان قد باشر ، على طلب من والده ، ترجمة كتاب « ليبير كرياتوراروم Liber Greaturarum » للاهوتي ريموند سيبوند ؛ ولكنه كان قد عاش سنين بالقرب من لابويسي عاقداً العزم على تجديد الحكمة القديمة بين معاصريه ؛ ولكنه كان قد اكتسب ، من تربيته الاولى ، « مزاجاً خاصاً» جعله غير قابل لخدمة الاخرين ، و « بنية حساسة لا تقبل الالتماس » . ولقد عاد الى قصره حيث عاش بهدوء حتى آخر ايام حياته ، وحيث خصص جناحاً للكتب. وهي « المكتبة التي يشرف منها على املاكه » . « انني ارى منها بستاني مع حوش الدواجن . هنا اقلّب ، حيناً ، صفحات كتاب ، وحيناً ، صفحات كتاب آخر ، غير متّبع نظاماً او خطة ؛ أحلم طوراً ، وتارة اسجل

وأملي احلامي التي امامك » . وقد اتى ، في الثامن والعشرين من شباط ١٥٧١ ، بمن يرسم له ، في صحن الدار ، الكتابة التالية : «في السنة ١٥٧١ للمسيح ، جاء ميشال ده مونتاني ، وهو في الثامنة والثلاثين من العمر ، عشية هلال آذار ، تذكار يوم مولده ، وكان قد ملّ ، منذ زمن طويل ، عبودية المحاكم والوظائف العمومية ، وهو لا يزال في كامل نشاطه ، جاء يطلب العزلة والهدوء ، في احضان الثقافات العذراء ، وفي ظل السكينة والامان ، حيث سيقضي بقية ايامه ، راجياً ان يتيح له الحظ إكمال هذا المسكن ، وهذا الحمى الوالدي العذب لكي يمارس في ظله حريته ويملأ ، بالتأملات المطمئنة ، ساعات فراغه » .

بيد ان مونتاني لم يحي ما بقي من ايامه حياة هادئة ؛ فقد كان يستقبل ، بسرور ، الوجهاء واصحاب القصور جيرانه ، سواء أكانوا كاثوليكيين ام بروتستانتيين ، ويحب معاشرة السيدات الجميلات ولكن بأدب : « بالرغم من كل ما ينعتوني به من الخلاعة ، لقد حافظت بصرامة على قوانين الزواج التي لم أعِد بها ولم أرجُها » . اما افضل اوقاته فقد كان يقضيها في مكتبته حيث كان

يستغرق في التأمل ، او في المطالعة ، مالئاً حواشي الكتب التي كان يطالعها بالملاحظات ؛ وهكذا توصل الى تأليف كتابه « محاولات » الذي كان ، في شكله الاول ، أبحاثاً يتخللها أسانيد جمة مورّدة .

كانت هذه المكتبة مقامة في الدور الثالث من احد الابراج المخصص بها ، وفي الدور الاول كان المعبد ، وفي الدور الثاني كانت غرفة ينام فيها في الليالي التي كان يريد ان يكون فيها وحده ، وفوق هذه الغرفة كانت « غرفة كبرى معدة للثياب » ، وكان يقيم فيها اكثر ايام حياته واكثر ساعات النهار : « كان شكلها مستديراً ولم يكن فيها شيء مسطّح سوى ما يلزم لمنضدتي ولكرسيّ ، وكانت استدارتها تتيح لي ان ارى ، بلمحة واحدة ، كتبي المصفوفة كحلقة امامي » . وقد عهد مونتاني ، في ما بعد ، الى رسامين بكتابة حِكم يونانية ولاتينية على سقف الغرفة ، وهي خلاصة خبرة الحكماء ، على زعمه . وقد ظل برج المكتبة ، في سنة ١٩٤٠ ، الجزء الوحيد الذي لم تتلفه النار التي التهمت القصر سنة ١٨٨٥ .

– بدأ مونتاني بتأليف كتابه « محاولات » سنة ١٥٧٢ ،

ولم تكن اوقات الكتابة عنده متواصلة او منتظمة : فقد تمر اشهر طوال من غير ان يضيف سطراً واحداً الى مخطوطاته . لايجب ان ننسى ان مونتاني كان ، كاخوته رجل سيف : « لاشغل امتع من شغل الجندي». ان يكن قصير القامة ، فقد كان ذا بنية قوية ، ومعدة ممتازة ، وصوت جهوري عريض . وقد وصف ، هو نفسه ، جبهته العالية ، النافرة ، « وعينيه الوادعتين»، وانفه المعتدل ، وفمه الصغير ، واذنيه القصيرتين ، واسنانه البيض ، ولحيته الوارفة بلون« قشر الكستنا»، وشاربه المرتفع . كان يستطيع ان يقف على رجليه نهاراً كاملاً ، ويجلس على ظهر الجواد عشر ساعات متواصلة من غير ان يتعب ، ولم يكن احد ، على زعمه ، يستطيع ان يتحمل بلذة ، مثله ، اعباء الحرب . ولكنه لم يسهم في الحرب الا بعيداً عن بلده . ففي سنة ١٥٧٤ خلال الحرب الدينية الرابعة ، كان في بواتو مع الجيش الملكي ، وقد ارسله مونبانسيه ، قائد الجيش ، من معسكر سانت هرمين بمهمة لدى مستشاري محكمة العدل العليا في بوردو . وحينما فر هنري ده نافار من قصر اللوفر الى جنوب فرنسا ، استقبله مونتاني في قصره

مرتين ، ومن المرجح ان هنري ده نافار ، حينما اصبح هنري الرابع ، منحه ، سنـــة ١٥٧٧ لقب شريف في الغرفة الملكية مكافأة له على خدماته .

بعد سنة بدأ مونتاني يشعر بالم داء الكلى ، وهـــو داء متوارث في عائلته ، «وهو أسوأ الادواء ، واعنفها ، وآلمها ، واعضلها » ؛ وقـد اضطره ، في سنتي ١٥٧٨ و١٥٧٩ ، الى الذهاب للاستشفاء في جبال البيرينيه حيث المياه المعدنية ، ثم الى مدن إيغ كود (مياه حارة) ، وبانيير (مياه كبريتية) ، وبريشاك ، وبلومبيير (في فرنسا) ولوك (في ايطاليا) . وبما ان « السفر بدا له تمريناً مفيداً » فقد عزم على البحث ، مدة سنة كاملة ، عن « الراحة ، والمتعة ، والسلوى » . وكان قد أنهى الجزأين الاولين من كتابه « محاولات » وُطبعا في بوردو بعناية الناشر ميلانج ، بينما كان هنري الثالث يذيع عزمه على محاصرة مدينة لافير التي كانت ، آنذاك ، في ايدي أتباع كلڤينوس ، وبما ان مونتاني كان قد اصبح نبيـــل غرفة الملك ، فقد سارع الى الذهاب قرب سيده ، حيث شهد حصار المدينة ومقتل صديقه فيليبير دي غرامونت « السيد الفتى الممتلىء بسالة ورجـــاء » ، زوج الحسناء

كوريزاند داندوين التي صارت ، في ما بعد ، خليـلة هنري الرابع والتي أهدى اليها مونتاني « السبع وعشرين قصيدة من شعر صديقه لابويسي » . بعد انتهاء الحصار ، تابع مونتاني رحلاته ومعه اربعة رفقاء اصغر منه سناً كانوا قد صحبوه الى محاصرة مدينة لافير مع العزم على الذهاب ، مثله ، الى رومية ، ولكنهم قبلوا المراحل التي فرضها عليهم كبيرهم . كان هؤلاء النبلاء الاربعة : اخاه الاصغر ، برتران دي مونتاني ، الذي كان يقصد من مجيئه الى رومية تعلم المبارزة ، واحد أصهاره برنارد دي غازاليس ، وشارل ديستيساك ، وهو ابن احدى صديقات مونتاني التي اهدى اليها « محاولة مودة الآباء للأبناء » ، وكان الرفيق الرابع نبيلاً لورّينياً من هوتوي .

كان الخدم يكملون هذه القافلة ، وعلى الاخص خادم مونتاني الخاص (وكانت وظيفته تدوين يوميات الرحلة الى ايطاليا) . وقد القى الجميع عصا الترحال ، اول مرحلة ، في مدينة بلومبيير حيث قضوا عشرين يوماً . لم يكن فليسوفنا يتبع نصائح اطبائه بدقة بل كان يتداوى بالمياه المعدنية التي يستنسبها ؛ وقد أجاز لمضيفته ان ترفع ، خارج الدار التي كان يقيم فيها ،

لافتة تحمل شعار مونتاني كما ينصبون ، اليوم ، صفائح تدل على ان هذا النادي ، مثلاً ، راضٍ عن الاستقبال الذي حظي به . فمونتاني يروي بدقة وتفصيل ، في « يوميات الرحلة إلى ايطاليا » ، كل ما كان يستملحه ، ولا سيما ما كان يتعلق بالمائدة واشكال الطعام التي كانت تهمه اكثر مما كانت تهمه المياه المعدنية . وبعد زيارات خاطفة لعدة مدن في فرنسا وايطاليا ، وصلت القافلة الى رومية حيث قضت كل الشتاء . وفي اول الربيع ، ذهب مونتاني يضع تقدمة على اقدام سيدة لوريت بحسب نذر سابق ، ثم أمّ مياه لوك المعدنية ثانية . وحينما عاد الى رومية وجد بانتظاره رسالة من اعضاء بلدية بوردو يُنبؤونه فيها بانه انتُخب رئيساً للبلدية المذكورة . لم يفكر مونتاني برفض هذا المنصب الذي كان والده قد شغله في ما مضى ، فعاد الى فرنسا ووصل الى قصره في الثلاثين من تشرين الثاني سنة ١٥٨١ حيث وجد بانتظاره رسالة من الملك يحثه بها على قبول رغبة اعضاء بلدية بوردو .

انتخب مونتاني رئيساً لبلدية بوردو لمدة سنتين فلم يأل جهداً في اتمام وظيفته على الوجه الاكمل ، حتى

استحق ان ينتخب مرة ثانية لمدة سنتين اخريين . ثم أرسل بمهمة الى بلاط الملك حيث دافع عن مطالب سكان بلدته ، وشكا من توزيع الضرائب غير العادل ، ثم طالب بحرية الملاحة على نهر الغارون .

ان تكن السنتان الاوليان من رئاسة مونتاني لبلدية بوردو قد مرتا بهدوء ، فلم تكن السنتان اللتان تلتهما كذلك ، اذ ان العلائق كانت قد توترت بين هنري الثالث وهنري دي ناڤار ، وكان مونتاني الوسيط بين ماتينيون ، ممثل الملك في غيّان ، وبين دي بلسيس مورناي ، ممثل ملك ناڤار . بعد وفاة دوق دالانسون ، اصبح هنري دي نافار ولي العهد . بيد ان زوجة هنري دي نافار ، مرجريت ، اخت هنري الثالث ، قضت ، بمناوراتها ، على كل امل تقارب : فحزب التحالف (La Ligue) الذي يقوده ، في بوردو ، فاياك ، حاكم قصر « ترومبيت Trompette » كان يُعد هجوماً مفاجئاً . أما ماتينيون ، الذي كان عليه ان يحول دون وقوع هذا العدوان ويحبط مناورات فاياك ، فقد طلب مساعدة ومشورة مونتاني الذي لم يتردد في القيام بواجبه كخادم امين للملك . وحينما ابتعد ماتينيون عن بوردو

واصبح مونتاني وحده في الدفاع ، أظهر حزماً ونشاطاً بالغين ، وقضى « جميع الليالي إما في المدينة ، تحت السلاح ، وإما خارجها ، على المرفأ » .

قبل انتهاء مدة رئاسة مونتاني لبلدية بوردو بقليل، وبينما هو مقيم في قصره ، ظهر الطاعون في بوردو ؛بيد ان مونتاني لم يشأ ان يدخل المدينة . ان هذا السلوك، الذي يستحق مونتاني اللوم عليه، اليوم ،كان آنذاك ، مطابقاً لعادات العصر : لم يكن تسليم مفاتيح المدينة لرئيس بلديتها الجديد سوى تقليد رمزي ، ولم يكن مونتاني ليستطيع ان يبقى في قصره ، لان الطاعون كان قد انتشر بصورة فاجعة ، وكان الاهالي يموتون بالجملة ، فلم يسع مونتاني إلا ان يهرب بعائلته من امام الوباء الثائر .

واصل مونتاني نشاطه في تأليف كتابه « محاولات» خلال رئاسته لبلدية بوردو والحق به اضافات مستمرة ، وحينما عاد الى قصره ، سنة ١٥٨٦ ، أعد له طبعة جديدة بعد ان كتب الثلاثة عشر فصلاً من الجزء الثالث .

لقد اراد مونتاني الاشراف ، بنفسه ، على إعادة

طبع كتابه في باريس على مطابع هابيل لانجليه . وفي سنة ١٥٨٨ ، شخص إلى العاصمة ، وبالقرب من مدينة اورليان سلبه قطاع طرق في شهر تموز ، وحين وصوله إلى باريس القى عليه القبض « المتحالفون » الذين كانوا اسياد المدينة ، آنذاك ، وزجوه في سجن الباستيل ؛ غير ان الام الملكة ، كاترين دي ميديسيس ، تداخلت في قضيته واعادت اليه حريته . فخلال اقامته هذه في باريس تعرف بمدموازيل غورناي التي دعاها ، في ما بعد ، « ابنته بالعهد » والتي بعثت اليه برسائل تظهر له فيها اعجابها بمؤلفاته ، فتوطدت عرى الصداقة بينهما ، لان مونتاني كان شديد الشعور بالمديح ، ومنذ ذاك واصل زياراته لها في قصرها ، وهو قصر دي غورناي في ولاية بيكاردي .

في شهر تشرين الاول ترك مونتاني باريس حيث كان قد قوبل بحفاوة بالغة وتوقف في مدينة بلوا لكي يشهد الجلسات الاولى للولايات العامة وهناك التقى ثانية جاك دي تو ، وباسكيه ثم اتى غيان « حيث اضطرته حرب «المتحالفين » الى المساهمة في القيادة لخدمة الملك » كما تقول مدموازيل دي غورناي . وحينما اصبح هنري دي

نافار ملك فرنسا الشرعي بعد وفاة هنري الثالث ، بعث مونتاني الى الملك الجديد المحبب اليه برسائل ممتلئة بالنصائح السامية وبالتجرد الكامل .

تفاقم الداء على مونتاني وتتابعت الأزمات المؤلمة ، وحينما شعر بدنو اجله اخذ يستعد لمغادرة هذا العالم : « ها انا ، الآن ، في حالة تتيح لي ، بمعونة الله ، ان اتوارى ساعة يشاء غير آسف على اي شيء في الدنيا . . لقد حللت كل رباطاتي ، وودعت الجميع ، ولم يبق علي الا ان اودع نفسي » . وفي ايلول سنة ١٥٩٢ شُلَّ لسانه وظل ثلاثة ايام لايستطيع الاتصال باحد الا عن طريق الكتابة . قال باسكيه : « حينما شعر مونتاني بدنو اجله كتب إلى زوجته ان تجمع حوله اصدقاءه وجيرانه النبلاء لكي يودعهم . وحينما لبوا طلبه رجا الكاهن ان يقيم له ذبيحة القداس في غرفته ؛ وبينما كان الكاهن يرفع القربان المقدس ، اندفع مونتاني المسكين بكل قواه منتصباً على فراشه مضموم اليدين ، ثم اسلم روحه الى بارئه » .

دُفن مونتاني في بوردو وفي كنيسة احدى رهبانيات القديس انطونيوس ، وقد ترك نسخة من الطبعة الخامسة

لكتابه « محاولات » ممتلئة الحواشي بالاضافات وجاهزة لطبعة سادسة . وقد طبعت سنة ١٥٩٥ على مطابع لانجليه في باريس بعناية مدموازيل دي غورناي .

فلسفته

اولا – قال رينان : « تقوم براعة الـــكاتب بان يكون له فلسفة، ولكن بان يخفيها ايضاً . يجب ان يرى الناس الجداول التي تخرج من الجنة ، ولكن لا الينابيع التي تتفجر منها ، وان يسمعوا الانغام ، من غير ان يروا آلة الطرب التي تعزفها » . ما من اثر فلسفي يطابــق هذا القول وهذا المنهاج اكثر مما يطابقه كتاب مونتاني « محاولات » ، هذا الكتاب الأشهر المفعم بالفلسفـــة المتعمقة التي لا يعرضها مونتاني لأجل ذاتها ، بل يرجع اليها في كل مناسبة ، صراحةً او ضمناً ،والتي لا تتبدل، اصلاً ، بالرغم من الظــواهر التي تبــدو ، احيانــاً ، متناقضة .

علينا ، لكي لا ننخدع ، ان نعلم ان الانسان ، في

نظر مونتاني ، « متموج ومتعدد » ؛ وهكذا كان مونتاني يرى نفسه ،بصفته انساناً « متموجاً ومتعدداً». لذلك ، حينما يعالج مواضيع عدة، نراه يعالجها بخفة تبدو ، احياناً ، صبيانية ، ويعرّي المشاكل بلامبالاة ، وبسخرية باسمة ، ويعرض النفي والاثبات بلهجة الضاحك، وينهي كلامه بقلب الحديث راساً على عقب ، حتى لنظن ان هذا هو قالب تفكيره ؛ ولكننا اذا تعمقنا في دراسة كتاباته، رجعنا عن هذا الظن : فليس لكاتب ما لمونتاني من ردات الفعل الذاتية ، الخاصة به ، امـام المشاكل التي يعالجها ، وهي ردات فعلٍ لا تناقض فيها ، بـل تتطابق وتتجانس . ليس لمونتاني مذهب فلسفي يحاول عرضه على الملأ ، بل موقف فكري يتخذ ، في النهاية ، صورة المذهب وتُظهِر لنا دراسته نفس فيلسوف متفق مع ذاته يعرف ما يقوله ولماذا يقوله .

نجد عند مفكري النهضة(La Renaissance) ، بالرغم من الفوارق التي تفصل بينهم ، ميزتين مشتركتين :

يتفق جميعهم على ان يعلنوا او يظهروا انهم تعبـون من هـذه الفلسفة اللاهوتية التي دُمِغت بها عقولهم لكي يُرقّدَ فضولهم الى معرفة اصول الاشياء ومصادرها ،

والمصير الذي ينتظرهم ، وتكوين الطبيعة وسننها ، ومميزات الانسان الجسدية ، والعقلية ، والأخلاقية . لم يكونوا ليغفروا لتلك التمارين القياسية التي فرضها عليهم ، بلغة لاتينية بربرية ، اساتذة صارمون ، قذرون ، حيوانيون . كانوا يأنفون ممن يصورون لهم هذه الحياة كزمن منفي ، وكاختبار خلقي ، يجب وقفها على التقشف ، والزهد ؛ وكان القضاء على الاهواء التي ترافق الحياة يبدو لهم ظالماً ، متعسفاً ؛ واما النظريات التي كان اساتذتهم يجعلونها ذات قيمة ، النظريات التي تعزي خاصيات الاشياء إلى جواهرها ، واما النظريات التي تقول بان النباتات لا تنمو الا لان لها نفساً نباتية ، وان الحيوانات لا تشعر الا لان لها نفساً شعورية ، فقد كان التلامذة يتساءلون : هل لم تكن تلك النظريات ، إما ساذجة ، وإما مضحكة ؟ وهل لم يحن الاوان للبحث عن شيء آخر ؟ كانت الفلسفة العصرية ، آنذاك ، قد افلست في نظرهم .

من جهة ثانية ، كانت ميزة النهضة الادبية الخاصة هي تشبثها بتقليد القديم في كل شيء ، ولاسيما في فن العمار ، وصنع التماثيل ، وفي الادب المأخوذ عن

هوميروس ، وفرجيل ، وهوراس ، وكذلك في الفلسفة ذاتها . لم يكن ادباء عصر النهضة ليجرأون على التعبير عن افكارهم من غير تحفظ ، فكانوا كنبتة اللبلاب التي تستند الى الشجرة لكي ترتفع نحو السماء . هكذا كانوا يلوذون بسلطة المعتقدات والمذاهب القديمة ، فيشرحون ويفسرون إماافلاطون ، وإماابيقوروس، وإما الفلاسفة الرواقيين ، ويعارضون ارسطو بحسب فلاسفة العصر اللاهوتين ، بارسطو من صنعهم . وكان جميعهؤلاءالادباء يحشون كتاباتهم بفيضمن الاستشهادات، ولم يشذ مونتاني عن هذه القاعدة . هو ، ايضاً ، مجّ الفلسفة التقليدية المعاصرة واتجه نحو الفلاسفة القدماء ؛ بيد ان الفلسفة التي انتهجها كانت فلسفة شخصية خاصة به ، بالرغم من انه نحابها نحو الفيلسوف اليونانيالارتيابي (بيرُون Pyrrhon) ، مع مزيج من الفلسفةالسقراطية، والابيقورية ، والرواقية . ان ما قاله مونتاني لم يكن مجرد اقتباس ، بل خلاصة تفكير عميق وتعبير شخصي . لقد قلّد النحل ، كما يقول : « انها تقتبس من الازهار ، من هنا ومن هناك ، ولكنها تصنع مما تقتبسه الشهد الذي هو صنعها الخاص : فلا سعتر يبقى ، هنا ،

ولا مردقوش » . هكذا اقتبس مونتاني من الفلاسفة القدماء ، ولكنه صنع مما اقتبسه منهم « مونتانيات» ، اي نتاجاً شخصياً ، فريداً ، شهياً .

ان خاصية العقول الفتية ، كعقول الاولاد ، وعقول المفكرين القدماء ، هي الإيغال في العقائدية . يزعم هؤلاء انهم يعرفون كل شيء ، ويستطيعون ان يبرهنوا عن كل ما يعرفونه ؛ وانطلاقاً من هذا الزعم ، كانوا يثبتون ويبنون . هذا ما صنعه ، بكل بساطة ، أقدم مفكري اليونان . فسواء منهم فلاسفة مدرسة يونيا ، مثل طاليس ، وانا كزيمان ، وانا كزيماندر وأشياعهم ، او ممثلو مدرسة (إيله Elée) مثل بارمينيدس ، وزينون واشياعهما ، أو بيتاغور وشيعته ، او ، في ما بعد ، اصحاب المذاهب المعقّدة التي وضعها مفكرون اكثر نضوجاً ، مثل هيراقليطس وديموقريطس، وأنا كزاغور (Auaxagor) ، فانهم ، جميعهم ، يعتبرون انفسهم قادرين على بلوغ معرفة مطلق الكائن ، ومطلق العلل ، وعلى وضع بيان شامل عن الكون ، وعن مصادره ومصائره ، ببضع كلمات ، بل ببضع ابيات من الشعر ، زاعمين ان بيانهم هذا خليق بأن يرضي فضولنا كل الرضى.

ولكن ، لسوء الحظ ، لم يكونوا على صواب في ما ذهبوا اليه : فما كان يروق لهؤلاء منهم ، لم يكن يروق لأولئك ، وما كان يبدو اكيداً للبعض كان يبدو للبعض الآخر مشكوكاً فيه ، او خطأ كلياً. من هنا تلك الاختلافات المؤسفة ، المزعجة ، بين نظريات المدارس المتعددة ، وبراهينها ، ومزاعمها .

هذا ما سبّب ، منذ الأزمنة الاولى للتأمل القديم، ظهور مشكلة اساسية ، هي مشكلة النقد : فقبل ان نسترسل في ابحاث معينة ، وقبل ان نؤكدحقائق معينة، أليس الاجدر بنا ان نعتصم ببعض التحفظ ؟ ألا يجب ان نتساءل : ما هي وسائلنا الاستعلامية ، والبرهانية ؟ وما قيمتها ؟ وهل تستطيع وسائلنا الاستعلامية ان تحيطنا علماً بما نريد ان نعلم ؟ وهل تستطيع وسائلنا البرهانية ان تثبت لنا صحة ما نظن اننا اكتشفناه ؟ انها لمشكلةحاسمة تدعو العقل الى التأمل، والى الالتفاف على ذاته ، لكي يحلل ويعجم مواهبه الخاصة من غير شفقة ، لانهمضطر الى معرفة ذاته قبل اي شيء آخر، وقبل ان يسترسل في مزاعمه العقائدية .

منذ بروز هذا السؤال ، ظهر نقاد العقل البشري

وكاشفو عيوبه ؛ ولم يكن السفسطائيون ، الذين ظهروا قبل افلاطون ، إلا من هؤلاء النقاد . فقد زعم بروتاغوراس « ان الانسان هو مقياس كل شيء ؛ انه مقياس الاشياء بحسبما هي ، ومقياسها بحسب ماليست اياه » . وبتعبير آخر ، لا يستطيع الانسان ان يضع اسئلة تفوق عقل الانسان ، ولا يملك سوى افكار ومستندات تمت بصلة الى الانسان ، وما يدعوه براهين وحججاً ليس سوى أقيسة بشرية ، اي مزاعم واهية . وقد لخّص غورجياس (Gorgias) ، في ذات الوقت ، فلسفته في ثلاثة عروض : (١ً)لا يوجد شيء ؛(٢ً) لو فُرض وجود شيء ، لما استطعنا ان نعرفه ؛ ٣ً) لو فُرض وجود شيء واننا نعرفه ، لما استطعنا ان نبلّغ معرفتنا به الى الآخرين » . انها آراء عدمية، ارتيابية، متشائمة ، جديرة بكل انتباه .

منذ ذاك الحين ، وبالرغم من جهود فلاسفة مثل افلاطون ، وارسطو ، وابيقور ، والرواقيين ، فقد استمرت تطغى على الفلسفة القديمة موجة عنيفة من الفلسفة المبالغة في انتقاد وتعييب العقل البشري ، وظل اسم بيرُّون يسيطر على نمو مدرسة الارتياب الجذري

اليونانية . كانت آراؤه المذهبية بالغة العنف ، ولكن الزمن هيأ لعقول متزنة تخفيف حدة هذا العنف ،والبلوغ الى مذهب احتمالي جد حكيم ، منهم الفيلسوفان أرسيزيلاس ، وكرنياد . كان مونتاني مطلعاً على تعاليم هؤلاء الفلاسفة عبر المؤلفات التي تتحدث عنها وتشرحها مثل كتاب شيشرون: (مجالس العلماء Les Académiques) ، وكتاب سكستوس امبيريكوس (Sextus Empiricus) : المصوِرات البيرُونية Les HypyotyposesPyrrhoniennes وكتاب ديوجين لايرس : حياة الفلاسفة ، والتلميحات المبثوثة في كتاب بلوتارك : الآثار الأخلاقية ، وهو احد الكتب التي كان مونتاني يدأب على مطالعتها .وقد جمع الفيلسوفان اينيزيريم ، وأغريبا ، براهين وحجج هذه المدرسة الارتيابيةولخصاها في مجموعة من«المجازات»، هذا فحواها :

لدينا مصدران رئيسيان للمعلومات ، وهما: الحواس والعقل . يضع العقائديون ؛ دائماً، ثقتهم إما في هذين المصدرين معاً ، وإما في احدهما دون الآخر . أما « مجازات » ، اي حجج وبراهين المدرسة الارتيابية ، فبعضها يتوخى هدم الثقة في شهادة الحواس ، والبعض

الآخر يتوخى هدم الثقة في شهادة العقل .

اننا نثق بحواسنا إما لكي نثبت ان شيئاً موجود ، مثلاً حينما اقول : « هذه الشجرة موجودة » ، وحينما الاحظ ، لكي اثبت ما اقول ، انني اراها والمسها ؛ وإما لكي نثبت ان شيئاً له هذه الصفة او تلك ، مثلا ان هذا الشيء احمر ، او ساخن ؛ وإما لكي نثبت ان هذا الشيء له مع هذا الشيء الآخر هذه العلاقة او تلك ، مثلاً انه اصغر او اكبر منه .

ثم نحن نثق في عقلنا لكي نثبت بعض المبادىء التي يعتبرها واضحة لاريب فيها ، كالمبادىء النظرية العلمية ، والمبادىء العملية الاخلاقية . ونحن نستند الى العقل ، ايضاً ، لكي نستخلص النتائج من مقدمات نضعها إما في شكل مبادىء مطلقة ، وإما في شكل حقائق اختبارية .

أما حجج وبراهين الارتيابيين فلا هدف لها سوى هدم مثل هذه الآراء والتعاليم اذ يزعمون اننا لانستطيع ان نثق في حواسنا لكي نثبت اي شيء لاننا ،سواء في الحلم ، او في الوهم ، او في الهذيان ، نؤمن بحقيقة اشياء الا وجود لها.فما الذي يثبت لنا اننا لسنانحلم دائماً،واننا

لسنا مخدوعين بمجرد ظواهر حينما نصدق حواسنـــا ؟
لا نستطيع ان نبني على شهادة حواسنا ،لا حكم صفة ، ولا حكم علاقة ، لان حواسنا تتناقض : فثمة تناقض متواتر بين حواس شخصين في وقت واحـــد ، وبين حاستين مختلفتين لشخص واحد ، وحتى بين المعطيات التي تُعرض لحاسة واحدة عند شخص واحـد في ذات الوقت . فلماذا نصدق ، مثلاً ، هذه الحاسة ولا نصدق تلك ؟ ثم ان عقلنا ليس باكثر صدقاً من حواسنا ، اذ ان المؤكدات النظرية ، ولا سيما المؤكدات العملية ، ليست واحدة في مختلف العصور وعند مختلف العقـول ، مهما كانت هذه العقول راجحة .فأية مؤكدات نصدق ؟ ثم ان الخطأ محتمل الحدوث في كل زمان ومكان ، حتى في ابسط الامور ، مـع العـلم بان من صفات المخطىء الاعتقاد بانه على صواب . مـــن المحتمل ، اذن ، ان يكون خطأ ما نعتقد بانه صواب ، وان يكون وهماً ما نعتقد بانه حقيقـة . لذلك لا يمكننـا العثور على محك نتبين به الصحيح من الزائف ،وبالتالي ،لا يمكننا تأكيد شيء تأكيداً مطلقاً ، نهائياً . لا مفر ، اذن ، من هذه الحلقة المفرغة .

فالحكمة الوحيدة تقـوم ، اخيراً ، بان لا نحكم

احكاماً مبرمة . نستطيع القول : « يُخيل الينا ان لهذا الشيء هذه الصفات ، وان له هذه العلاقةمع هذاالشيء الآخر » ويمكننا ان نضيف : « هذه هي الحقيقة التي تبدو لنا اكيدة ، وهذا مانعتقد انه صحيح » . فما زاد على ذلك كان تجاوزاً على الحقيقة يجب العدول عنه .

هذه هي المواضيع التي عالجها الارتيابيون أشياع بيرّون ، وهذه هي ، ايضاً ، المواضيع التي أخذمونتاني على عاتقه البحث فيها مجدداً ، والتي طرقها بسخرية ادبية بارزة ، كأنه يتلذذ بتعرية العقل البشري من المؤهلات التي يزعم انه يملكها ، وكأنه يتلهى بمحق التأكيدات العقائدية التي يتشبث بها البسطاء .

كان للارتيابيين ، على زعم مونتاني ، كل الحق في الاهتمام بقيمة شهادة الحواس ، لان « العلم يسير انطلاقاً منها وينتهي اليها » . أليست هذه الحواس هي التيتتيح للعلم ظروف التأمل ، ووسائل الاختبار ؟

ولكننا لسنا متأكدين ، على الاطلاق ، من وجود الاشياء التي تصورها لنا حواسنا . قال الارتيابيون القدماء يذكروننا بخداع احلامنا واوهامنا : « يتأثر عقلنا وتتأثر نفسنا بالافكار الغريبة ، العجيبة ، التي

تأتينا في نومنا ونصدقها ، آنذاك ، كما نصدق الافكار التي تأتينا في يقظتنا ، فماذا يمنعنا من ان نعتبر ان هذه ليست سوى نوع من تلك ؟ »

يستخلص الارتيابيون ، أشياع بيرون من شواذات الحواس اسباباً للارتياب في جميع الاحكام التي نصدرها على الصفات ، وعلى العلائق ، والتي نبنيها على معطيات الحواس ؛ وهذا مايستصوبه مونتاني كل الاستصواب .

يعتبر مونتاني ، اول ما يعتبر ، ان حواسنا البشرية غير كاملة وغير كافية ، ويقول : « اشك في ان يكون للانسان جميع الحواس التي تستطيع الطبيعة ان تهبها. اني ارى حيوانات كثيرة يعيش بعضها عيشة كاملة،تامة، محروماً من حاسة النظر ، والبعض الآخر محروماً من حاسة السمع . فمن يعلم ، لربما كنا نحن محرومين ، ايضاً ، من حاسة ، او حاستين ، او ثلاث حواس ، او اكثر ؟ » . يبدو هذا الرأي قريباً من الاحتمال ، نظراً الى ان بعض الحيوانات تسلك كأنهاتملك حواس لا نملكها نحن . فان صح ذلك ، فرضاً ، « يكن القسم الاكبر من وجه الاشياء مخفياً عنا . لقد صغنا حقيقتنا بناء على معطيات حواسنا الخمس ، ولكن ربما كنا نحتاج الى

معطيات ثماني او عشر حواس لكي نبلغ الى الحقيقة الكاملة » .

ثم ان الارتيابيين ، في نظر مونتاني ، هم على صواب ايضاً لان حواسنا تقلب لنا الاشياء ، في كل وقت ، وتشهد زوراً . انها تتناقض باستمرار ، فلماذا نصدق احداها ولا نصدق الاخرى ؟ » أما في ما يختص بالخطأ التي ترتكبه الحواس ، فكل واحد منا يستطيع ان يتأكد من ذلك بنفسه في كل ظرف ، وفي ما يشاء من الاختبارات ، لوفرة ما تخدعنا به حواسنا » . اننا لندهش حينما نقابل بين الطرائق التي يحس بموجبها شخصان بشريان : « الولد يرى ويسمع ويذوق بطريقة تختلف عن طريقة ابن ثلاثين ، وهذا بخلاف ابن ستين ، ثم ان حواس بعض الأشخاص تبدو اكثر ظلمة وثقلاً ، وحواس البعض الآخر اكثر انفتاحاً ورهافة» . وندهش اكثر حينما نقابل بين الناس والحيوانات . « لاشك في ان لبعض الحيوانات حواس ارهف من حواس الانسان ، سواء منها حاسة النظر ، او السمع ، او اللمس ، او الذوق ، او الشم ». لذلك نرى ان لبعض هذه الحيوانات اعيناً صفراء ، وان لبعضها الآخر أعيناً حمراء ؛ فمن

المرجح ان يكن لون الاشياء عندها غير اللون الذي نراه نحن ». لا حاجة لنا الى أن نذهب بعيداً لنتأكد من تناقضات معطيات الحواس. يكفي ان نخالف بين اصبعين ونلمس بطرفيهما كرة صغيرة من لباب الخبز لكي نختبر ذلك. فحاسة النظر لا ترينا سوى شيء واحد، بينما حاسة اللمس تشعرنا بشيئين، وهي حاسة واحدة. فتدنّي الحرارة، والضغط الذي يقع على حدقة العين، وبُعد أو قرب الشيء، وجموده او سرعة حركته، كل ذلك يشكل ظروفاً تغير احساسات لمسنا ونظرنا تغيراً عميقاً. يرى بعض الاشخاص الشيء الواحد كبيراً بالعين اليمنى، وصغيراً بالعين اليسرى؛ واليد الباردة تحس الماء الفاتر حاراً بينما اليد الحارّة تحسه بارداً. الخلاصة « لا تتصور الاشياء في داخلنا بشكلها وجوهرها الحقيقيين ... لانها لو كانت كذلك لكنا نشعر بها في كل ظرف بذات الشعور، ولكان طعم الخمر في فم الشخص المريض مثله في فم الشخص السليم ».

حينما تتناقض حاستان « فشهادة اية حاسة منهما نصدق ؟ » يجب علينا الرضوخ والتسليم : ان معطيات حواسنا تتيح لنا ان نقول : « اننا نرى هذا الشيء ،

ونلمس هذا الشيء الآخر ، ونشعر بها شعوراً خاصاً » ؛ ولكن أن تكون الاشياء موجودة ، او أن تكون كما تبدو لنا بالفعل ، بحجة اننا نشعر بها كذلك ، فهذا ما لا يحق لنا ان نؤكده .

ثم ، إن يكن الارتيابيون على حق في دعواهم ضد الحواس ، فانهم على حق ، أيضاً ، في دعواهم ضد العقل . هنا ، ايضاً ، كانت نظرتهم الى الاشياء صائبة . اجل ، ان ميزة المخطىء ، هي أنه يجهل خطأه ، ويعتقد بانه على حق . ينجم الخطأ عن جهلنا لبعض الأشياء ، لاننا لو كنا نعلم كل شيء لما استطعنا ان نقع في الخطأ . ولكننا نتصور ، غالباً ، اننا نعلم الاشياء التي نجهلها ولذلك ، بدلاً من ان نتحفظ في احكامنا ، فاننا نلقي الكلام على عواهنه . « لا شك في ان الخطأ والصواب، والأوهام والحقائق ، تختلط في عقلنا ، ولا معجم لدينا نميز به ، بوضوح ، بعضها من بعض » . وهذا ما يقلق افكار كل من يعرف تاريخ الآراء البشرية .

لنستعرض الآراء النظرية والفلسفية التي اصدرها الانسان على الطبيعة وعلى نفسه . فكم من مذاهب تعاقبت ، وكم من مذهب حل محل مذهب ، وكم من

ذوي عقول راجحة ظنوا انهم متأكـدون من الآراء والافكار التي اعلنوها ومع ذلك ، فهذا الذي كان يبدو لهم لا ريب فيه اتضح خطأه ، وهذا الذي كانوا يعتبرونه نهائياً زال وانهار . انها امثولة قاسية، علينا ان نفيد من عبرتها ، لانه ان كانت الطبيعة البشرية « تنخدع عـدة عصور بهذا او بذاك ، فما الذي يضمن لنا انها لاتنخدع، ايضاً ، في هـذا العصر ؟ وإن كان لآراء البشر تطورها، وفصولها ، ومولدها ، وموتها ، كالبقول ... فكيف نعزي اليها هذا السلطان القضائي المتواصل ؟ » .

ولننتقل ، الآن ، الى الامور التي تهمنا اكثر ، تلك التي تمس الاخلاق والسلوك الذي يجب ان نسلكـه في الحياة . يزعمون ، غالباً ، ان البشر يحكمون ، جميعهم، وبذات الطريقة ، على ما هو صحيح وعلى ما هـو غير صحيح ، ويرون ، جميعهم الخير حيث هو ، والشر حيث هو . ان الذين يزعمون هذا الزعم لا يلتفتون الى ما هو حولهم ، فان التاريخ ،والجغرافيا ، يبينان لنا العكس، إن وأد الاطفال ، وقتـل الآباء المسنين ، والمشاركة في النساء ، والغزو ، والقرصنة ، واتباع الشهوات على اختلافها ، كل ذلـك مارسته وأباحته الامم في مرحلة ما من التاريخ .

ولكن ، ألا يوجد ، ايضاً ، «شرائع غير مكتوبة» ، تلك الشرائع التي يتحدث عنها المسرحيون اليونانيون في مآسيهم ، الشرائع الالهية الازلية التي يستوحيها كل شخص بشري ، من مصدر واحد ، في كل زمان ومكان ؟ ان الذين يجيبون بالايجاب لا يخدمهم الحظ : « من تلك الثلاث او الاربع شرائع المنتخَبة ، لا توجد شريعة واحدة لم تنبذها امة او اكثر من الامم » . الحقيقة هي ان « الشرائع تستمد سلطتها من تخصصها وممارستها » : فالشرائع التي درجنا عليها هي التي نجدها صالحة ومطلقة . « ان الشرائع التي يتبناها الضمير ، والتي نقول عنها انها صادرة عن طبيعة الاشياء ، لاتصدر ، في الحقيقة ، الا عن العادة ، وان كل شخص يكنّ احتراماً داخلياً للآراء والقواعد السلوكية التي يمارسها الناس حوله ، لذلك لا يمكنه ان يخالفها من غير تبكيت ضمير ، ولا ان يحافظ عليها من غير رضى» .

كيف يمكننا ، في هذه الحالة ، الا نقلق على قيمة معتقداتنا التي نزعم انها صادرة عن عقلنا ؟ كيف لا نقلق اكثر حينما نتأمل عن كثب في الاسباب التي تحملنا على الايمان بهذه المعتقدات وعلى تبنيها ؟ فالتربية

التي تلقيناها ، والجو الذي عشنا فيه ، والامثلة التي تأثرنا بها ، بل الخمرة التي شربناها ، والاهواء والاهتمامات التي تشغلنا وتحركنا ، والجوع ، والعطش ، والمرض ، بل النحلة التي تدندن ، والذبابة التي تمر ، كل ذلك يضغط على عقلنا ويعمي تفكيرنا . حينئذ « ان كان تفكيرنا يخضع للمرض ، وللاضطراب ، وللتهور ، وللجنون ، ويتأثر بكل ذلك ، فاية ضمانة يستطيع ان يقدمها لنا ؟ » .

لقد فهم الفلاسفة الاقدمون ما نحن بحاجة اليه لكي نخرج من هذا المأزق : اننا بحاجة الى مقياس حقيقة ، ودليل هدى ، اي هذه « الأداة القضائية » التي ما برحوا يبحثون عنها . هنا ، ايضاً ، كان رأي الارتيابيين هو الاصح ، اذ انهم سخروا من سذاجة هذا البحث . فلكي نستطيع ان نقول : « هذه الأداة القضائية هي الصالحة » ، علينا ، اولاً ، ان نعلم ما هي ؟ « ولكي نتأكد من حقيقة الظواهر التي تبدو لنا ، نحتاج الى أداة حكم وقضاء ؛ ولكي نتحقق من صحة وصلاحية هذه الاداة ، لا بد لنا من برهان ؛ ولكي نتأكد من صحة هذا البرهان ، يلزم لنا اداة حكم وقضاء جديدة ؛

ومكذا دواليك هوذا نحن في قلب حلقة مفرغة » .

لا يجب ان نفتكر اننا نستطيع ، على الأقل ، تبين المرجح ، كما يفتكر انطيوخوس وشيشرون . لاشك في انه يوجد ، ثمة ، امور تبدو لنا ، نحن البشر ، وذلك بمقدار ما نحن ننتسب الى وسط معين، وزمان معين، اكثر احتمالاً من غيرها . ربما كان ذلك صحيحاً . ولكن اية وسائل لدينا تمكننا من التأكد ؟ لكي نستطيع ان نقول بوثوق ان بعض النظريات والآراء تقترب من الصحيح وتشبهه ، اكثر من سواها الا يلزمنا ، اولاً ، ان نعرف ما هو الصحيح ؟ وبما اننا نجهله ، فهل يمكننا ان نعلم الى اي مقدار نحن نقترب منه ؟ » إما اننا نستطيع ان نحكم حكماً كاملاً ، وإما اننا لا نستطيع الحكم مطلقاً » .

هكذا تبدو حيرتنا كاملة ولا نخرج لنا منها . فما العمل ؟ ان الذين يقولون اننا نعرف ، لربما كانوا لا يعرفون انهم يجهلون . ثم ان الذين يقولون لسنا نعرف شيئاً ولا نستطيع ان نعرف شيئاً فانهم يبالغون في نسبتهم كل هذا الجهل الى عقلهم . فالحكيم الحكيم هو الذي يتجنب مثل هذه المبالغات ، ويفضل ان يتكلم

بصوزة الاستفهام ويقول «ماذا اعرف» ؟ ولا شيء سوى ذلك . هذا يعني اننا ان كنا نجهل اشياء كثيرة ، فمن المحتمل اننا نعرف بعض الاشياء ؛ ولكن هـذا يعني ، ايضاً ، اننا لا نستطيع ان نميز ، بتأكيد ، ما نعرفه حقيقة . يقـول مونتاني : « ان اعترافنا بجهلنا هو من اجمل وأوثق الشهادات بحسن تفكيرنا ، وامنـع حصـن نحتمي به من الخطأ » .

ان ما يقوله مونتاني ، هنا ، هو نوع من الاعتراف الشخصي ، من الاقرار الساذج بما يحسه ، ويعتقـــده ، ساعة يقوله . ربما كان ، بالامس ، او ربما اصبح ، غداً ، على رأي يختلف ، ولكنه يقول موضحاً : « هذه هي ، الآن ، افكاري وآرائي ، اعرضها كما هي في خاطري لا لكي احمل غيري على تبنيها ... ليس لي سلطة فرض آرائي ، ولا لي رغبة في فرضها على احد ... كيف اعلّم غيري وانا محتاج الى من يعلمني ؟ » . فان تمشى في «مكتبته» ذهاباً واياباً ، وهو يملي او يدون افكاره ، فما ذلك الا لكي يشغـل اوقات فراغـــه ، ويتحاشى الضجر ، ولكي يترك لذويه صورة امينـة عـن نفسه حينما يغادر هذه الحياة . لذلك هـــو يُودِع القرطاس

« احلامه التي امامك » .

ثانياً ـ يجب علينا ألا نأخذ هذا التصريح بالحرف . اننا نجد عند مونتاني رأياً سائداً تتوافق بموجبه افكاره وعواطفه ، وهذا الرأي هو ان الانسان حيوان متكبر ، أبله ، وان كبرياءه سبب كل جنونه ، لذلك يجب علينا ، قبل كل شيء ان نخفف من غلواء كبريائنا وادعائنا . وكتب مونتاني يقول : « ان الادعاء هو مرضنا الطبيعي . ان الانسان من اضعف الخلائق واشدها كبرياء . يعيش بين اوحال هذا العالم ومع ذلك تصعد به مخيلته لكي تحله فوق النجوم وتضع السماوات تحت قدميه » . تتضح هذه النقيصة في الانسان على انواع شتى ، بعضها تافه ، وبعضها مجرم . حينما يدعي الانسان انه من طبيعة تختلف عن طبيعة الحيوان ، وحينما يعلن نفسه ملك الخليقة ويؤكد ان الكون وُجد لاجله ، يبدو مضحكاً . ولكن الكبرياء هي التي تنفخ الملحد ؛ وهي التي حملت البروتستانتيين المنشقين على الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية ؛ وهي التي تحرك ، في كل مكان ، هؤلاء الثوار الذين يريدون الحكم على الشرائع ، ويطمحون الى اصلاحها ، ويزعمون تشييد دولة جديدة

على اسس جديدة ؛ وهي التي تظهر في الادعاء الجاهل ، وفي المطامع الجنونية ، وفي التعصب ، وفي جميع الآراء المطلقة .

لا ، ليس الانسان من جوهر يختلف عن جوهر الحيوان . ان حيوانات كثيرة تفوق الانسان جسدياً : إما بالقوة ، وإما بالمقدرة على الاحتمال ، وإما بالجمال ذاته . أما من الناحية الاخلاقية ، ألسنا نرى عند الحيوانات عواطف نتمنى ان نكون حاصلين عليها نحن ، كالحب بحد ذاته ، والحنان والتفاني الوالدين ، والاستعداد للبلوغ ، في كل ذلك ، الى اقصى درجة من التضحية إما في الحضانة ، واما في الرضاعة ، واما في الدفاع عن الصغار ؟ ثم ، من الناحية العقلية ، بماذا تفوق فنوننا فنون الكثير من الحيوانات التي تتّهمها ، زوراً ، بالجهل والبهيمية ؟ من منا يستطيع ان ينسج كما تنسج العنكبوت ؛ او ان يصنع قرصاً من الشهد كما تصنع النحل ، او ان يبني عشاً مثل هذه الروائع التي تبنيها الطيور ؟ ربما قال قائل : ولكننا لنا النطق ، والعلم ، وكل ما يدل على مقدرة عقلية لاتنعم بها الحيوانات . صحيح ان الحيوانات لاتتكلم بلغة كلغتنا؛

ومع ذلك ، من يجرأ على القول ان الحيوانات لا تتفاهم فيما بينها ، ولا تتبادل عواطفها ، وإراداتها ، وانها لا تتضامن عند الخطر ، ولا تتعاون عند الحاجة ؟ ألا تعرف قططنا وكلابنا ان تلعب معنا ، وتفصح لنا عن رغباتها ؟ أما في ما يختص بهذا العلم الذي نفتخر به ، فهل نحن ندري ما اذا كان لخيرنا ام لشرنا ؟ فما الفائدة، ياترى ، من معرفتنا اننا سنموت ، حتماً ، يوماً ما ، واننا معرّضون لاخطار شتى؟ في مركب يرتجج على بحر هائج ، يظل الخنزير ، مثلاً ، هادئاً ، بينما قلوب الناس تهلع من الذعر . ثم ما هي طبيعة ، وما هو عمق هذا العلم الذي نمجده ؟ فليس هو ، في أغلب الاحيان ، سوى ادعاء جاهل « ان السلعة ، فيه ، كلام ، والثمن كلام ايضاً . نقول ان الحجر هو جسم ، ولكن ما هو هذا الجسم ؟ وان لهذه الاشياء جوهراً ، ولكن ما هو هذا الجوهر ؟ اننا نفسر كلمة ، في اغلب الاحيان ، بكلمة اكثر غموضاً منها ، وان الشك الذي نسعى الى جلائه ينبت لنا عدة شكوك . وهكذا دواليك » . لا ، لا ، ليس لدينا ما نبرهن به على اننا من طبيعة تختلف عن طبيعة الحيوان « ربما وجد فرق بين انسان

وانسان اكبر من الفرق الموجود بين هـذا الحيوان وهذا الانسان » .

اي مشهد يقدمه لنا اولئك الذين يحسبون انفسهم نقطة دائرة الكون ؟ « هل من الممكـن ، اذ ذاك ، تصور شيء اكثر جدارة بالضحك من الانسان ، هـذه الخليقة ، البائسة ، الحقيرة ، التي لا تملك السيادة على نفسها والتي تزعم انها سيدة وامبراطورة الكون ؛ هذا الكون الذي لا تعرف اي جزء من اجزائه ؟ » . أليس للطائر الصغير كل الحق في ان يفكر كما يفكر هـذا الانسان ، وان يحسب نفسه غاية الكـون القصوى ؟ « لماذا لا يحق لهذا الطائر الصغير ، مثلاً ، ان يقول : جميع اجزاء الكون تنظر الي ، فالارض ممهـدة لكي امشي عليها ، والشمس مضاءة لكي تنيرني ، والنجـوم تلمع كي تهديني ؛ اني اتمتع بالهواء ، وبالمياه ؛ ان هذه القبة الزرقاء التي اسبح فيها تنظر الي بعطف اكبر من اي عطف تنظر به الى سواي ؛ اني مدلل الطبيعة ...
وهكذا يستطيع ان يقول طائر الرهو ، وباكثر حق ، لاجل الحرية التي يُتاح له ان يسبح بها في هذه المنطقـة الجميلة ، العالية ، مسرح خطرانه ولهوه » . ثم يخلص

مونتاني الى القول: «أظن اننا، نحن البشر، لن نستطيع ان نكون ، ابداً ، هدفاً لكل الاحتقار الذي نستحقه» .

هذا ما يستحقه المتغطرسون ، واليك ما يستحقه المجرمون :

لا يُلحد الملحد الا من حيث يظن انـه يعرف كل شيء ، وان ما لا يطابق افكاره لا يستطيع ان يكون صحيحاً . هذه اولى ظواهر هذا الادعاء المؤسف .يقول الملحد : بما ان الشر موجود في العالم فالله ليس بموجود « وبما انه لا يمكن صدور شيء ، عن لا شيء ، فلم يكن ممكناً لله ايجاد الكون من غير مادة ! » . أليس اللجوء الى مثل هذا التفكير كبرياء وغطرسة ؟ « من الادعاء الجنوني ان نصم بالمستحيل كل ما لا نراه يوافق تفكيرنا» . هل وضع الله في ايدينا مفاتيح احكامه وأدلة كل قدرته ؟ » . فالى اي مدى يصل علمنا والى اي مقدار من التأكيد ؟ وماذا نعلم بالنسبة الى ما نجهل ؟ ماذا نعلم من التركيب الذي يحيا به جسم مثل جسمنا ؟ ماذا نعلم من العالم المادي ؛ من السماء والشمس والكواكب ؟ صحيح اننا نعلم النتائج التي يجب

استخلاصها من المبادىء التي نضعها ؛ وصحيح اننا نعلم ، بفضل الايمان ، ما اراد الله ان يوحيه الينا . ولكننا ، ان نحن تُركنا الى وسائلنا الخاصة ، فماذا نستطيع ان نعلم من كل شيء ؟ لن نستطيع، آنذاك ، سوى اللجوء الى تقديرات وتخمينات يناقض بعضها بعضاً ، وليس لدينا ما نستطيع ان نثبت به شيئاً منها . ان الكبرياء التي تدفع المدعي الى الاعتقاد بانه يعرف ، هي من الظواهر المضحكة التي تدل على فقدان موهبة النقد وسلامة الحكم . من هنا تأتي كبرياء الملحد وهي اشد خطراً وإجراماً . يجب ان يتخذ الملحد عبرة من سنبلة الحنطة التي ترفع رأسها وهي فارغة وتخفضه وهي ممتلئة . يجب على الملحد ان ينسحق تحت عبء جهله، وان يحذر تهور عقله الجامح .

ثم ان ما يصح قوله عن الملحدين يصح ايضاً عن هؤلاء المشاغبين من بروتستانتيين وثوار .

لماذا نرى البروتستانتيين يرفضون ما تعلمه الكنيسة الكاثوليكية بالرغم من ادعائهم بانهم يؤمنون بوحي التوارة وبصدق الانجيل ؟ فهل يظنون ان الله الواحد الذي اودع هذه الكتب المقدسة اهم الحقائق اللاهوتية والفلسفية والاخلاقية قد تخلى عن اولئك الآباء القديسين،

والمجامع المقدسة ، والاحبار العظام الذين شرحوا ، منذ القدم ، وعلموا تلك الحقائق؟ هل يزعم البروتستانتيون انهم يعملون على توحيد الافكار بترجمتهم الكتب المقدسة الى اللغة العامية ، وبدعوتهم أقل الناس جدارة الى ان يشرحوا على هواهم رموز تلك الكتب السامية؟ بل كيف يطيب لهؤلاء البروتستانتيين أن يصطادوا في الماء العكر ، وان يهدموا وينهبوا تحت ستائر دينية؟ » إما الخضوع الكامل لسلطة رجال الدين ولتعاليمهم ، وإما التنصل الكامل من الدين . فليس لنا ، نحن ، ان نخضع لما نريد من هذه التعاليم وان ننبذ ما نريد » .

اما الثوار ، على اختلاف نحلهم ، « فليسوا سوى اناس نفختهم الكبرياء ودفعتهم ، تحت ستار الاصلاح ، الى اعتبار آرائهم الخاصة جديرة بان تسمح لهم باشعال نار حرب اهلية تلهم الاخضر واليابس » . « صحيح ان من الشرائع ما هو صالح ، ومنها ما هو ناقص ، اوفاسد. اما الشرائع الفاسدة فقد وضعها اناس غير اهل لوضعها ، او انهم ، في بعض الاحيان ، اناس متحيزون لايقيمون وزناً لما هو عدل ، ولكن اصلاحها بالحديد والنار يظل افجع من البقاء عليها » . لنأخذ عبرة من التاريخ :

كم من الذين زعموا انهم مصلحون وحاولوا اقامة دولة مكان الدولة التي هدموها ففشلوا وتبين لهم ، في آخر الأمر ، ضلالهم الفاجع !».

هي الكبرياء التي تدفع البشر الى البحث عن المجد الباطل الذي من اجله يقتتلون ويتذابحون ؛ وهي التي تثور في احشاء اولئك المتبارزين، وتحوم حول مصيرهم الشقي : « ان من يلجأ الى القضاء لاجل اهانة ألحقت بشرفه ، يلحق بشرفه اهانة اخرى ، ومن يلجأ الى وسائله الخاصة لكي يمحو هذه الاهانة يتعرض لعقاب القانون »؛ والكبرياء هي التي تلد التعصب وتشعل، باسم حقيقة يزعم المتعصبون انهم يملكونها ، محرقة ضحاياهم؛ وهي التي تقنع بعض السلالات بانها متفوقة ، اصلاً ، على سواها .

ان جميع بلايانا تنبع من هذه الكبرياء ومن هذا الادعاء ، وتجعلنا عرضة للسخرية والازدراء .

ثالثاً – ماذا يجب علينا ، اذن ، ان نفتكر ، وان نقول وان نفعل ؟

ليس لهذه الاسئلة سوى جواب واحد : ان ما يهم في الحياة هو ما يساعدنا على ان نعيش محتفظين بما تتطلبه

منا طبيعتنا البشرية أي بصفائنا الداخلي ، وبفرحنا ، وبتوازننا ، وباعتدالنا كما فهم ذلك سقراط وابيقور .

يجب علينا ان نعرف ، قبل اي شيء آخر ، كيف نتجنّب الخطأ والادعاء الذي ينجم عن هذا الخطأ ويجعلنا نتعامى عن نقائصنا ونقسو على نقائص الآخرين؛ ولاجل البلوغ الى هذه الحكمة ، علينا ان نقيس عمق جهلنا ، لاننا ان عرفنا جهلنا زدنا علماً ، وكان جهلنا، الذي لا مفر لنا منه ، أخف وطأة . ولكننا ، حينما نجعل من جهلنا علماً ، يصبح ضلالاً خطراً . ان من يعلم انه يجهل لا يعرض نفسه للتأكيدات المتهورة ، ولا يزج آراءه في المطلقية الجازمة ، بل يردد مع سقراط: « لست اعرف سوى شيء واحد ، وهو انني لا اعرف شيئاً » . « ثمة جهل بدائي يسير امام العلم، وجهل آخر يأتي بعد العلم ، ويصدر عن العلم ، كما انه يمحو ويهدم الجهل الاول » ، لانه يعلمنا ان نقول « ربما » ، ونحتمي في حصن هذه الكلمة المنيع . ان علمنا بجهلنا هو الذي يجعلنا متواضعين ومتساهلين .

ثم علينا ألاّ نركض وراء الفضول المتهافت ، لان هذا الفضول هو احد الامراض التي نعانيها ، ولان

المبتلي بهذا المرض لا يمكنه الخلود الى الراحة ، ولا التمتع ، بسلام ، بالخيرات التي لديه ، فبدلاً من ان يتمتع بالخيرات التي يملكها فانه يركض وراء الخيرات التي لا يملكها . « يقودنا الفضول الى زج انفسنا في كل شيء ؛أما حب المجد الباطل فيمنعنا من العيش بسلام» .

ان كان لا بد لنا من ان نؤمن بشيء ، فلنؤمن ، فقط ، بما له اهمية في حياتنا . « لوكان الانسان حكيماً، لثمّن الاشياء بالنسبة الى ما يمكنها ان تفيد به حياته». لذلك، وكما قال سقراط ، فالعقل يمهد لنا ، على هذا الصعيد ، اتجاهات موفقة ، سليمة ، بينما هو ، على غير صعيد ، عاجز عن ذلك . انها قاعدة عملية خصبة تأتي بافضل النتائج لأنها تساعد على الانسجام الحكيم مع النظام الاجتماعي المتّبع ، ومع سائر العادات المحافظة التي تحمي ، في كل بلد وفي كل زمان ، الاشخاص ، والقومية ، والتعاضد البشري . لنؤمن ، اذن ، بكل ما تثبته وتثبّته عاداتنا وتقاليدنا . لنؤمن بنبالة الدين التقليدي الذي انعم الله علينا به . لنؤمن بفائدة النظام السياسي الذي كرسته الاجيال في بلادنا والذي يؤمّن، حالياً ، الطمأنينة والازدهار . لنؤمن بصحة جميع

القواعد الاخلاقية التي اورثتنا اياها الاجيال السالفة . لنؤمن بكل ذلك او لنعمل ، على الاقل ، كأننا نؤمن به ،لأن التهذيب يقضي بذلك : «يجب على الرجل الحكيم ، العاقل ، في ما يتعلق بداخله ، ان يحمي نفسه من الضغط الخارجي لكي يستطيع ان يحكم على الاشياء بكل حرية ، ولكنه يضطر ، في ما يتعلق بما حوله، الى المحافظة على القواعد والعادات المتبعة » .

باسم هذا المبدأ حاذر مونتاني البدع الدينية ، والسياسية ،وحتى العلمية. « مهما يكن من امر التجدد ، فانني لا اتبدل بسهولة ، لأنني أخشى الخسارة في التبديل » . « كان القديم ، قبل تجديده ، هو الاصح في نظر الناس ، فما الذي يضمن لنا ألا يلقى الجديد الذي نظنه الاصح نفس المصير الذي لقيه القديم ؟ » . هنا يلمح مونتاني الى كوبرنيك الذي اعلن دوران الارض . فهل نؤمن بنظريته نهائياً ام مؤقتاً ؟ « يمكن ان يكون هذا العالم الفسيح شيئاً غير الشيء الذي نظنه». لنحذر ، دائماً ، الآراء الجديدة . «بما انني لا استطيع ان اختار ، فاني الجأ الى ما يختاره غيري وارضى بالقسمة التي قسمها الله لي ، وإلا عرضت نفسي للتدهور المستمر».

يبقى علينا ان نتذكر آثار (سينيك Sénèque) ، ولاسيما كتابه « رسائل الى لوسيليوس » التي اودعها خلاصة الحكمة البشرية مازجاً فيها افكاراً ابيقورية وافكاراً رواقية . وقد حذا مونتاني حذوه . غير ان سينيك كان رواقياً (Stoïcien) يستند الى ابيقور من بعيد ؛ أما مونتاني فقد كان ابيقورياً يمزج في مذهبه آراءً مستعارة بعضها من سقراط والبعض الآخر من ابيكتيت (Epictète) . لقد رأى مونتاني في المذهب الرواقي روحاً متوترة ، متصلبة ، مبالغة ، طموحة ، لا يسعه ان يرضى بها . فقد كتب يقول : « اني احب حكمة فرحة ، مهذبة ، وانفر من صرامة الاخلاق ومن تقشفها ، لانني ارتاب بكل وجه عابس » . « ان الافراط ، ولو في الخير ذاته ، ان لم يغظني ، فانه يدهشني » .

ان ابيقور هو اذن ، صاحب الرأي الاصح في نظر مونتاني . فطبيعتنا تنزع ، بكاملها ، الى اللذة ؛ وكل ما نصنعه ، حتى اعمالنا الصالحة ، غايته ، في النهاية ، هذه اللذة . « مهما قالوا عن الفضيلة ، فان غاية ما نصبو اليه هو اللذة. يطيب لي ان أصك مسامعهم بهذه الكلمة

التي يتطيرون منها » . بالحقيقة ، يلذ لنا ان نكـــون راضين عن انفسنـــا ، وان نشعر ، كما قال دالامبير (D'Alembert) في ما بعد، باننا « على علاقة طيبة مع انفسنا ! » . ثم ألا يؤلمنا ان نكـون غير راضين عن افعالنا ، ونياتنا ، وان نكون مضطرين الى ان نحاسب انفسنا حساباً عسيراً ؟ » .

ولكن ليست جميـع اللذات بصالحة ، لذلـك يجب علينا ان ننظم ميولنا وأهواءنا ان كنا نريـد ان نذوق طعم السلام في داخلنا ، اي هذا الرضى الصافي ، هـذا الفرح المتزن الذي هو السعادة الحقيقية .

ولنحذر ، قبل كل شيء، من إخضاع ارادتنا لمشيئة الآخرين : « ان لي شرائعي ومحكمتي الخاصة التي اقاضي امامها نفسي » . ليكن لكل انسان مثله الاعلى الخاص به ، وليقرر هو ذاته ، مـا يجب ان يصنـع الآن ، وغداً ،وبعد غد .

ثم علينا ان نحد من رغائبنا وشهواتنا ، هذه المسوخ التي لا تشبـع ولا يُروى لها ظمأ ، ولنقررها بالنسبـة الى حالتنا الجسدية ، والمادية ، والمعنوية. « تطابق نفسية الانسان ما يعتقده وما يقتنـع بصحته ، ان خيراً ،وان

شراً » . يشقى اولئك الذين لا يفكرون في التمتـع بما لديهم ، بل في طلب ما ليس لديهم . فلا نحذُ حذوهم .

علينا ان نُعنى عناءً خاصاً بصحتنا الجسدية لانهـا الاساس الاصلح لتوازننا العقلي والاخلاقي ، ولنهتم ، خاصة ، بتوازننا الاخلاقي لثبات جوهره وسمو نزعته.

ولنحذر التقشف الباطل ، ولا نمنـع أنفسنا من اية فرصة تتيح لنا التمتـع باللذة حينما تتهيأ لنا من غير ان ان تكون ضارة باحد . كم من الناس يبينون لنا الى اية درجة يشبه وضعنا البشري « وضـع حيوان حقير » . انهم يـكادون لا يستطيعون « ان يذوقـوا طعم لذة صافية » . لا تتردد في التمتع بما يهبنا اياه حظنا ، بـل لنجتهد في تنظيم حياتنا بحكمة ولنستخلص من وضعنا المادي ، ومن حالتنا الاجتماعية ، ومن اعتبار الناس لنا ، ومن الشعور بما نحن عليه من قدر وقيمـة ، كل الرضى الممكن استخلاصه . فالحرمان لأجل الحرمان سلوك شاذ .

غير ان الخيرات الخارجية معرضة للفقدان ، لذلك يجب علينا ان نستعد لفقدانها ، مـن غير تذمر ولا شكوى ، حينما تنتزعها منا الظروف.ان صفاءنا الداخلي

يتوقف ، اكثر ما يتوقف، على حكمة تفكيرنا ،وصقل نفسنا صقلاً مستمراً ، لان الثبات هو صفه الحكيم ، وعنصر هام في مركب السعادة . « جميع الوسائل الشريفة التي ندفع بها عنا الاضرار هي مباحة ، بل محمودة ، ودور الثبات في صفاء النفس يقوم ، اكثر ما يقوم ، بان نحتمل بصبر وجلد البلايا التي لا مفر لنا منها » .

هذا ما يجب القيام به في كل آن . ولاسيا امام الالم ، وامام الموت .

لاشك في ان الالم شر وليس في وسعنا ان نلاشيه ، ولكن في وسعنا ألا نبالغ في الخوف منه ، وان نجهد في اقتباله بابتسام ،ان امكن . «ان لم يكن باستطاعتنا ملاشاة الالم ، فباستطاعتنا ، على الاقل ، تخفيف وطأته بالصبر والاحتمال وطول الأناة » . هذا ما يشير به مونتاني عن خبرة ، فقد بدأ ، بعد ان تقدم شيئاً في العمر ، بمعاناة المغص الكلوي واوجاعه المرة ؛ و مع ذلك ، فقد كان يحتمل هذه الاوجاع محتفظاً بالسكينة و الابتسام .

أما في ما يختص بالموت ، فلنتهيأ لمواجهته ، في كل

حين » بالجرأة البطولية التي لاتزعزعها مفاجآته . « يجب ان نكون محتذين ، دائماً ، ومستعدين للرحيل » . ان في الخوف من الموت الكثير من الرعونة . « يالها من بلاهة تلك التي تحملنا على الاضطراب والاسف ، وعلى الذعر من انتقالنا الى حيث لا عناء ولا الم ! » ثم ان « آلافاً وآلافاً من البشر الذين سبقونا الى العالم الآخر يشجعوننا، ان نحن افتكرنا فيهم، على ألا نخشى الذهاب الى رفقتهم » . ان اجمل موقف نستطيع ان نقفه ، هنا هو ان نرى الموت آتياً « من غير دهشة ، بل من غير اهتمام ، مواصلين مجرى حياتنا ككل يوم » .

علينا ، اخيراً ، « أن نسعى الى ان نكون راضين ، دائماً عن أنفسنا ، وان نحول دون استغراقها في بعض الافكار والتأملات التي تؤول الى اضطرابها ، وان نتمتع بما نراه الخير الحقيقي بكل بساطة وقناعة غير متشبثين بطول الحياة وبطنطنة الاسم » . هذا هو سر الحياة الحكيمة ، وهذه هي الطريق التي نبلغ بها الى تلك العزلة الهانئة حيث نستطيع ان ننتظر ، بصفاء بال ، الساعة الاخيرة التي لا مفر لنا منها .

ان نحن سلكنا بحسب هذه المبادىء حصلنا من الحياة

على خير ما تستطيــع ان تقدمه لنــا . فالانسان الذي يطبق هذه المبادىء في حياته « يحقق الانسان البشري تحقيقاً كاملاً » ويقضي حياته « متمتعاً بتلـــك السعادة الثابتة » التي يحققها التوازن العقلي والسلام الروحي . انه يسلك ، هكذا ، بحسب خطة من الصلاح تتألف عناصرها مما تحدده العادات المتبعــة خلال كل عصر ، وفي كل وسط ، ومن الاعتدال ، ومن الرضوخ لما لا مفر منه ؛ وهكذا يجد مفتاح السعادة التي يمكن للطبيعة البشرية ان تهبها . ان الذين يسعون الى « التشبه بالملائكة » « لا يتشبهون الا بالبهائم » . لنثق بطبيعتنا البشرية ولنحقق لها رغائبها المشروعة فنحصل على الحياة الـتي يستطيـع الشخص البشري ان يحلم بها : حياة حـلوة ومحبوبة .

رابعاً ــ هذه هي الخطوط الكبرى للحكمة التي قال بها مونتاني والتي طبقها على حياته ، وهذه هي وجهات النظر التي كانت تسيطر على افكاره ، والتي كان يسير على هديها . واننا لنراها ، خاصة ، في الصفحات المدهشة التي تحدث بها ، كفيلسوف ، عن تربية الاولاد . فقد كان هذا الموضوع ، في نظره اهم المواضيـع جميعهـا ،

وفيه اودع اعمق افكاره وأنضجها .

لقد انتقد مونتاني ، انتقاداً صارماً ، الطريقة التربوية التي كانت سائدة في محيطه ، منطلقاً ، بانتقاده، من حقائق ثلاث : ١ً) يتوقف مستقبل الدولة على تربية الاولاد ؛ ٢ً) يجب ان نعلم الاولاد الحياة قبل ان تذهب ؛ ٣ً) واخيراً يجب ألا نترك تربية الاولاد على عاتق والدين اشرار ،فاسدين .

تبدو الغاية من هذا التعلم واضحة : « اعداد الولد لكي يستطيع ، عند بلوغه سن النضوج ، ان يصنع كل الاشياء ، ثم ان يختار الاصلح منها » . لم تكن الطريقة التربوية ، في عصر مونتاني ، موجهة نحو هذه النتيجة ، اذ « كان الطالب يقضي في المدارس خمس عشرة ، او ست عشرة سنة ، ويعود منها برأس منفوخ بدلاً من رأس ممتلىء » . وسبب ذلك ، اولاً ، اختيار مربين غير صالحين يسعون الى ان يجعلوا من الطالب « عالماً » ، بدلاً من ان يجعلوا منه « رجلاً » . لذلك ، يريد مونتاني ان يكون المربي « ذا رأس متزن بدلاً من ان يكون ذا رأس محشو بالعلوم »؛ ثانياًالمناهج الفاسدة التي لا يُعنى فيها الا بذاكرة الولد : « كان موبوتد لا

يبرحون يصكون آذاننا بثرثرتهم كمن يصب ماءً في وعاء ، وكان علينا ان نكرر ما كانوا يقولونه لنا » . والحال « ان المعرفة عن ظهر القلب ، فقط ، ليست بمعرفة . لا يجب ان نربط العلم ربطاً بنفس الطالب ، بل ان نمزجه فيها مزجاً ».

ثالثاً ، لم يكن كل ما كانوا يحشون به دماغ الولد شيئاً عملياً ، مفيداً . لقد سئل اجيزيلاوس(Agesilaüs) عن رأيه في ما يجب ان يتعلمه الاولاد ، فأجاب « ما يُنتظر منهم ان يعملوه حينما يصيرون رجالاً » . أليس من الجنون « ان نضيع اوقاتهم بتعليمهم دوران الكواكب ، وحركة الكرة الثامنة ، بدلاً من ان نعلمهم كيف يصبحون رجالاً ؟ » إيه ، سقراط ، ماذا كنت قلت عن ذلك ؟!

أما في ما يختص بالوسائل التي كانوا يحثون بها الطلاب على الدرس ، فقد كانت مقيتة . « ان اصلح الوسائل هي التي تثير في الطلاب القابلية والرغبة معاً ، والا جعلنا منهم حميراً يحملون كتباً » . والحال ، بدلاً من ان يستخدموا هذه الوسائل ، كان المربون يجعلون من التعليم منقع عذاب ، مجبرين الاولاد على

الدرس مدة اربع عشرة او خمس عشرة ساعة في اليوم؛ بل ويا للفظاعة ! كانوا يسوقونهم بالعصا ، حتى لما كنت تسمع في المدارس سوى « صراخ اولاد متوجعين ، وصياح اساتذة سكارى من الغضب ، بوجوه كالحة ، وايدٍ مسلحة بالسياط » . يا لها من طريقة يُراد بها تحبيب الصغار بالعلم ! » .

يجب ان يكون هدف التربية انما العقل وتثقيفه ، وتقوية موهبة سداد الرأي وصواب الحكم ، هذه الموهبة التي تتلد مع كل انسان ولكنها تفتقر ، مثل كل المواهب الطبيعية ، الى الممارسة الموجّهة .

من هنا يضع مونتاني برنامجاً تربوياً كاملاً مازال من اصلح البرامج ، بالرغم من مرور الاجيال عليه . وقد كتب في ذلك يقول : « لا اريد ان يشحذ المربي قريحته لكي يتكلم وحده ، اريد منه ان يصغي الى تلميذه وان يسمعه يتكلم بدوره . يحسن به ان يدفع تلميذه الى العدو امامه لكي يستطيع ان يحكم على مقدار نشاطه » . ان هذه الوسيلة لمن الاهمية بمكان لان المربي يستطيع ان يرى ، بواسطتها ، ان كان قد اصبح من الضروري التقدم بسرعة ، ام الاستمرار على السير بأناة

وتؤدة . ثم ان من اهم اهداف التربية تعليم التلميذ كيف يجب ان يحكم على الاشياء ، وتمرينه على اصدار الاحكام كيفما اتفق له ، بادىء ذي بدء ، لانه بالممارسة الموجهة يستطيع ، اخيراً ، البلوغ الى اصدار الاحكام السديدة . يجب على المعلم « إقناع التلميذ بما يلقنه اياه ، لا فرضه عليه بالسلطة والإيمان » . يجب عليه ان يضع تلميذه امام المشكلة ، موضوع الجدل ، وامام مختلف الحلول المقترحة ، وان يحثه على التمييز بين قيم البراهين المعروضة لكي « يختار التلميذ ، ان استطاع الاختيار عن اقتناع ، او لكي يظل في ارتياب حكيم » .

لذلك ، فبدلاً من القاء الولد في متاهات من المشاكل العويصة البعيدة عن متناول فهمه ، يجب لفت نظره وافكاره الى الاشياء التي يستطيع ان يراها ، ويلمسها ، ويقدرها بنفسه .

لنتذكر سقراط ومحاوراته وطريقة جلب محاوره ، بواسطة سلسلة من السؤالات ، الى اكتشاف الحقائق الكامنة في نفسه . لنساعد الولد على اكتشاف الافكار التي يجب ان توجه حياته . « يجب ان نعرفه ماهي المعرفة ، وما هو الجهل ، وما هي غاية الدروس

والابحاث ، وما هي الشجاعة ، والقناعة ، والعدالة ، وما الفرق بين الطمع والبخل ، وبين العبودية والإخضاع ، وبين الخلاعة والحرية ، وكيف يمكنه ان يميز السعادة الحقيقة ، والى أي حد يجب ان يخاف الموت ، والالم ، والخجل ، وما هي الاسباب التي تحركنا وتتلاعب بعواطفنا » . وبالاختصار ، علينا ان نساعد الولد على تمييز المبادىء التي يحتاج اليها « لأجل تنظيم سلوكه وشعوره ، لكي يستطيع ان يعرف ذاته ، وكيف يجب ان يحيا وان يموت » . أما ما بقي فيأتي في ما بعد .

يجب اعداده لكي يكتشف ، في كل مكان ، مادة للتأمل ، وللتمييز ، وللاختبار ؛ وهذا ما يستطيع ان يعثر عليه في الغرفة ، وفي البستان ، وعلى المائدة ، وفي الفراش ؛ في العدالة ، وبين الرفاق. سيعثر عليه « خلال الالعاب » ، وفي مشاهدة عمل الصانع ، وفي الحديث مع الراعي ، والزارع ، والاسكاف ، والخياط .. « ان امثولته تأتيه اتفاقاً ، بقطع النظر عن المكان والزمان ، ممتزجة مع كل اعماله » .

يجب ان يفيد من الاسفار ، ويشهد مناظر البلدان المختلفة ؛ ويرى مختلف الناس والاشياء ، ويطلع على

شتى الآراء والافكار ، والمعتقدات، والقواعد الاخلاقية، لكي يكون كل شيء فرصة له للتأمل : سواء أكان شيطنة خادم ، ام بلاهة فرّاش ، ام نكتة على مائدة » . يجب ان يدرس كل شخص ، سواءً أكان بقاراً ، ام معماراً ، ام عابر طريق ، وان يشحذ ، هكذا ، عقله على عقل الآخرين ».

وهكذا يتلد عند الطالب « فضول شريف يتوخى استقصاء كل شيء » ، يختلف عن ذلك الفضول الوخيم الذي نهى عنه مونتاني ؛ فبهذا الفضول الشريف، يتعلم الطالب ، عبر العالم، وبوسائله الخاصة أكثر واحسن ما يتعلم . « ان هذا العالم الفسيح هو المرآة التي يجب ان ننظر اليها لكي نعرف انفسنا معرفة حقيقية » . «وبالاختصار ، اريد ان يكون هذا العالم كتاب تلميذي: ان ما يحويه عالم البشر من مفاخر ، وشيع ، وآراء ، وافكار ،وشرائع ،وعادات ، يعلمنا ان نحكم حكماً صحيحاً على انفسنا ، وعلى نقص طبيعتنا وضعفها ان هذا ليس بالعلم القليل».

كل ذلك يعني وجوب تنظيم مواهب التلميذ لكي يصبح رجلاً متوازناً ، حكيماً ، مثقف الارادة والعقل،

وسعيداً بهذه الثقافة الكاملة . لقد كان هذا التلميذ ضحية المناهج التقليدية ، وكان يخرج من دروسه تعباً ، مثقل العقل ، مدعياً ، وجاهلاً . اما المبادىء التعليمية والتربوية التي وضعها مونتاني ، فتجعله يشعر بسلامة هذه المبادىء حتى انها تدفعه الى ممارسة الفضيلة بلذة وسرور فتصبح نفسه « صافية ، دائماً ، كهذه الاشياء التي نراها فوق القمر » .

•

لا بد من ان يتبع تثقيف العقل والاخلاق الاعتناء بسلامة الجسم وبتنميته . « لا يكفي صقل نفس الفتى ، بل يجب ايضاً صقل عضلاته » . لذلك ، يجب علينا ألا نترفق به ، من هذه الناحية ، بل ينبغي لنا ان ندربه على « تحمل التعب ، والالم ، ومشقة الاشغال » .

بهذا المنهاج يُعدّ الولد لان يصبح الرجـــل الذي يجب ان يكونه كل رجل: متمكناً، متوازناً ،حكيماً، مميزاً ، بعيداً عن كل كبرياء ، متحرراً من كل فخفخة ، « مهيّأ » للتسليم بالحقيقة ولالقاء السلاح امامها حالمـــا يشاهدها» ،كارهاً الثرثرة والادعاء، قادراً على السكوت في مجال السكوت ؛ غير باحث عن ان يدهش الآخرين او ان يوبخهم ، بل مفكراً باصلاح نفسه ، وبالاستمرار

في توازنه ، جديراً بان يفيد ، بحكمة ، من الخيرات التي يهبه اياها الحظ ، وبان لايأسف عليها يوم يفقدها .

هكذا يدلنا ، باعماله ذاتها ، على نجاح التربية التي تلقاها « فلا يُعيد امثولته عن ظهر قلبه ، بل يتلوها باعماله ، فنرى ان كان قد تميز سلوكه بالجودة ، والعدالة ،والحكمة ، والحذر، وان كان قد تحلى كلامه بالصواب واللطف ، وان كان قد اصبح قادراً على احتمال الاوجاع في امراضه ، وعلى التواضع في العابه ، وعلى الاعتدال في شهواته ، وعلى القناعة في مأكله وفي مشربه ، وعلى الاقتصاد في نفقاته » .

نرى منه كل ذلك لاننا نكون قد « صغنا » نفسه بدلا من ان « نحشوها » .

خامساً – يبقى سؤال خطير لا بد لنا، اخيراً ، من طرحه : ما هي درجة الصدق في كتابات مونتاني ؟ لا يمكن طرح هذا السؤال في ما يختص بكتاب مونتاني «محاولات»لان هذه المحاولات ليست سوى تعليق على بعض القصص والاساطير التاريخية التي تعود ، مثلاً ،الى اسكندر الكبير ، او الى يوليوس قيصر ، ولا في ما يختص بالصفحات التي يحلل بها مونتاني مميزاته الجسدية ،

والعقلية ، والاخلاقية بحرية تقرب ، احياناً ، من السخرية . بل لا بد من طرح هذا السؤال حينما يتكلم مونتاني عن الكثلكة ، والبروتستانتية ، والسياسة ، وهي أشياء لم يكن من الممكن ان تنفصل عن ذلك العصر الصارم ، عصر الحروب الدينية . فاخلاص مونتاني في كتاباته امر قد ارتاب به الكثيرون ،واليك الاسباب :

لقد قال مونتاني ، بالحقيقة ، وفي مناسبات شتى ، اقوالاً متناقضة . فهل كان ذلك عدم انتباه ؟ ام ضعف ذاكرة ؟ ام تعمداً لكي يدل على شتى أوجه الاشياء ، او لكي يحتمي وراء حذره ودهائه ؟ هذه هي أولى علل الارتياب .

لنسمعه الآن يقول لنا : انه يكره الكذب ،مبدئياً، لان الكذب شيء يُخجل منه ، بالاضافة الى انه يلقي الكاذب الضعيف الذاكرة في مأزق حرج لان هذا الكاذب ينسى ما كذب فيه فلا يستطيع تلافيه في ما بعد .

ثم يقول : انه لم يكتم ولم يرد ان يموه اي فكر من افكاره ،بل اعلنها بوضوح في معظم الاحوال . ولكنه،

حينما لم يكن يستطيع ان يعبر عنها بوضوح ، كان يلمح اليها ، على الاقل ، تلميحاً . « انني اجعل القارىء يشعر ، هنا « بميولي ، وبرغائبي ، بقدر ما يسمح لي التهذيب بذلك ؛ لكنني ابوح باكثر حرية ورضى بافكاري لمن يريد ان احدثه وجهاً لوجه . لذلك يجد القارىء في هذا الصفحات ، حين يمعن النظر ، انني قلت كل شيء او المحت الى كل شيء : فما لم استطع ان اعبر عنه بصراحة فقد عبرت عنه بالدلالة ... » .

مع ذلك ، فقد اعترف هو ذاته بانه كان يضطر ، في بعض الظروف والاحوال ، ولأسباب مختلفة ، الى ان يقول نصف الحقيقة : « كان يتفق لي ؛ لاسباب خاصة ، ألا اقول الحقيقة كاملة ، وبالوضوح المطلوب ، حتى ابدو متناقضاً مع نفسي » .

لذلك ، حينما كان يروي قصصه الصغيرة ، كان يطلب من قرائه ان ينتبهوا الى « مقصده » . لقد كان للكثير مما يكتبه معنى اعمق مما يظهر لأول وهلة : « لست انظر ، في الاخبار التي ارويها ، الى معناها البسيط فحسب . انها كثيراً ما تحمل خارجاً عن الحرف بذور مادة أغنى ، وأجرأ ، وادق ، لانني لم أشأ ان

اوضح اكثر مما اوضحت بل تركت للقارىء ان يتبين مقصدي » .

بعد هذه الملاحظة يمكننا ان نتصفح « محاولات » مونتاني على نور .

لقد أعلن مونتاني ، ما استطاع ان يعلن ، انه كاثوليكي صادق : لقد عاش كـكاثوليكي ، ومات كـكاثوليكي . وهذ ما يعرفه الجميع .
ولكن :

١ ً) كان ريمون دي سيبوند قد حاول ، على غرار توما الاكويني ، ان يدعم الايمان المسيحي الكاثوليكي بواسطة براهين لاهوتية مستمدةمن اللاهوت الكلاسيكي. وبعد وفاته كتب مونتاني ، على طلب من ابيه ، تقريظاً لصديقه ، ولكنه كان تقريظاً غريباً ، لان مونتاني حاول هدم سلطة العقل في هذه البراهين ذاتها التي استند ريمون دي سيبوند اليها . فان يكن مونتاني قد خلص الى ادانة الملحد ، والبروتستانتي ، وحبذ الديانة المسيحية الكاثوليكة ، فقد كان ذلك باسم ارتيابية جذرية ، وباسم انتهازية تستند الى فائدة الاحتفاظ بايمان الاجداد لاجل خير معظم الافراد والجماعات . لقد كان

هذا التقريظ صورياً ، في الظاهر ودحضاً لبراهين ريمون دي سيبوند في الحقيقة .

٢) ثم حينما يتكلم مونتاني عن الموت ، وعن خلود النفس ، يظهر لنا جلياً انه لا يؤمن بهذا الخلود ، وانه رجل ابيقوري يعتقد بتلاشي النفس واضمحلالها ، بعد الموت او ، على الاقل ، بتلاشي واضمحلال الذاكرة مع تلاشي واضمحلال الحياة : فالميت ، في نظر مونتاني ، لا يتذكر شيئاً مما عرف ومما عمل ، والموت هو فقدان الوجدان ، اطلاقاً ، وهو الراحة الابدية ، فكأن الموت ، بالتالي ، لا وجود له في ما يتعلق بنا . فهل هذا الكلام قابل التوفيق مع روح الديانة المسيحية الكاثوليكية ؟

٣) وليس هذا كل شيء . ان اخلاقية مونتاني هي اخلاقية ابيقورية ، وثنية ، مائة بالمائة . انها تدعونا الى الثقة الكاملة بهذه الطبيعة البشرية التي ما برحت الديانة المسيحية تحذرنا منها . من هنا نجد عند مونتاني ، بالنسبة الى بعض المواضيع ، افكاراً وآراءً لا تمت بصلة الى العقيدة الكاثوليكية . مثلاً : من العقائد الاخلاقية الكاثوليكية الملزمة تجريم الانتحار ، حتى ولو كان مسبّباً عن توبيخ الضمير لأنه يزيد الخطيئة خطيئة . اما مونتاني فانه لم يكتف بتحبيذ الانتحار ، بل يبدي اعجابه

ببعض الاشخاص المشهورين في العصور القديمة الذين اقدموا على الانتحار .

كل ذلك لا يستطاع نكرانه ولا تبرير مونتاني منه ، واكبر دليل على ذلك هذه العبارة التي اوردناها سابقاً ، والتي ينصح فيها مونتاني الرجل الحكيم باتخاذ موقف مزدوج ، اي الاحتفاظ ، من جهة ، بآرائه الخاصة ، وعدم الايمان الا بما يضطره عقله العملي الى الايمان به ؛ ومن جهة ثانية ، الاقتداء بما يعمل الاشخاص الذين يعيش بينهم . وقد حبذ ديكارت هذه القاعدة بعد مونتاني ، وربما لأجل مونتاني ، حينما تكلم ، في مجال الحديث عن قضية دوران الارض ، وعن إلغاء كتابه : « موسوعة العالم » ، عن « اولئك الناس الذين لا يقل تأثيرهم في اعماله عن تأثير عقله في افكاره » . انها عبارة تستحق التأمل ، وتكاد تلقي الينا بمفتاح المشكلة التي اضطررنا الى طرحها .

لنثق ، مع ذلك ، بصدق مونتاني واخلاصه ، ولا نحجم عن التمعن والتعمق في قراءة كتاباته ، فثمة عبارات صغيرة تكاد تمر امام اعيننا من غير ان نفهم معناها الحقيقي ان نحن لم ننعم النظر في ما تقصد اليه ، وهذه العبارات هي التي يمكنها ان تشعرنا بالاسباب

الحقيقية التي دفعت مونتاني الى استخدام هذه الكلمات الغامضة ، او تلك ، وهي التي ترينا لماذا يلجأ مونتاني، هنا ، الى السخرية والتهكم ، وهناك ، الى الحكمة والحذر ، ولماذا لا يقول بعض الاشياء الا لكي يعبر عن اشياء اخرى مختلفة ، او متناقضة ، ولماذا يدعونا ، اخيراً ، الى تبني موقف معين مع الاحتفاظ بافكارنا وعواطفنا « الخاصة » بالرغم من عدم مطابقتها لتلك التي نظهرها امام الناس .

لكن جميع هذه المتناقضات لم تحل دون رواج كتابات مونتاني رواجاً عظيماً . لقد كان كتابه : « محاولات » الكتاب المفضل« للناس الاشراف »من اهل عصره ، والطبق الشهي لابناء القرن السابع عشر ، ولا سيما للكاتبة الشهيرة مدام دي سيفينيه Mme Sévigné . وقد استعار ديكارت (١) من « محاولات » مونتاني جملاً وعبارات بنصها ، واستقى باسكال (٢) منها بعض اعمق افكاره . ولكن باسكال جعل منها سلاح حرب ضد

(١) راجع : مدخل الى فلسفة ديكارت للدكتور كمال الحاج
« تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى لرينه ديكارت
منشورات عويدات
(٢) راجع: باسكال تأليف اندريه كريسون، منشورات عويدات

الكفر ، وأدان ، بصرامة ، سخرية مونتاني وحكمته المترهلة . اما رجال بور رويال (Port-Royal) فقد اتهموا مونتاني بافساد الاخلاق ، وانتقده جان جاك روسو (١) انتقاداً مراً ،ولامه على هدمه سلطة الضمير . بيد ان معظم مفكري العالم قد تهافتوا على قراءة آثار مونتاني .

أخيراً، يبدو ان الدكتور ارمينيو Dr Armaignaud ، الذي أحب مونتاني حباً جماً ، وعمل الكثير على إحياء ذكره ، قد كان على صواب في ما ذهب اليه . فقد كان مونتاني ، في نظره ، دليلاً وهادياً لمن عاشره ، ومعزياً وصديقاً . « ان محاولات » مونتاني تظل احدى نتاجات مفكرينا التي تستحق ان تأخذ مقام الصدارة في مكتباتنا. يساعدنا مونتاني على العيش بحكمة ، والابتسامة اللامبالية على شفاهنا . انه يعلمنا كيف يجب ان نتمتع بالساعات الحلوة التي يهبنا اياها الحظ ، وكيف يجب ان نحتفظ بهدوئنا وسكينتنا امام الالم والموت. فهل من علم، مهما كان وثنياً، ألزم لبني الارض من هذا العلم ؟

---

(١) راجع: روسو تأليف اندريه كريسون ، منشورات عويدات

آثاره

نشر مونتاني سنة ١٥٦٩ ترجمة كتاب ريمون دي سيبوند « اللاهوت الطبيعي » ؛ ثم نشر آثار صديقه لابويسي فأصدر له الكتب التالية: « مهمة كزينوفون» و« قواعد الزواج عند بلوتارك »و« رسالة تعزية في بلوتارك الى زوجته » ؛ ثم أتبع بهذه المؤلفات تأبينه لصديقه لابويسي : « خطاب في موت السيد لابويسي ، باريس ، سنة ١٥٧١ » . وفي سنة ١٥٧٢ ، نشر مجموعة اشعار لابويسي تحت عنوان : « اشعار لابويسي الفرنسية » .

وقد كتب مونتاني ذكرياته عن رحلته في فرنسا ، والى اوربا الوسطى ، وايطاليا ، خلال سنتي

١٥٨٠ – ١٥٨١ ، تحت عنوان : « يوميات رحلة الى ايطاليا عن طريق سويسرا والمانيا » . وقد عُثر على هذه اليوميات ونُشرت سنة ١٧٧٤ .

لنذكر ايضاً « مراسلاته » التي نعلم منها الشيء الكثير عن نفسية مونتاني ، والتي يتحدث فيها ، بالتفصيل ، عن حياته ، وعن علائقه بمعاصريه .

أما في ما يختص بكتابه محاولات » ، فيفيدنا ان نذكر الطبعات المختلفة التي قام بها مونتاني نفسه ، وهي طبعات منقحة ، معدّلة ، ومزاد عليها ، تتيح لنا المقابلة بينها ان نتبع تطور فكر المؤلف :

سنة ١٥٨٠ . « محاولات ميسّير ميشال ، سنيور دي مونتاني ، فارس جمعية الملك ، وشريف عادي في غرفته » ، بوردو ، جزآن .

سنة ١٥٨٢ . « محاولات ميسّير ميشال ، سنيور دي مونتاني ، فارس جمعية الملك ، وشريف عادي في غرفته ، وحاكم بوردو ورئيس بلديتها » ، بوردو ، جزء واحد.

سنة ١٥٨٧ . ذات العنوان ، باريس (وهي إعادة الطبعة السابقة) .

سنة ١٥٨٨ . « محاولات ميشال ، سنيور دي

مونتاني » . وهي الطبعة الخامسة مزاد عليها قسم ثالث مع ستمائة اضافــة الى القسمين الاولين ، باريس ، جزء واحد . ان هذه الطبعة هي الاخيرة التي نشرت في حياة مونتاني .

في ١٥٩٥ ، نشرت مدموازيل دي غورناي ، «ابنة مونتاني بالعهد» الطبعة السادسة ، في باريس ، مــع التنقيحات التي عُثر عليها بعد وفاة المؤلف ؛ ثم الحقت بها الطبعة السابعة سنة ١٦١٧ مع ترجمة فرنسية للأسانيد اللاتينية المورَدة ، ثم الطبعة الثامنة سنة ١٦٣٨ مع سيرة حياة المؤلف باريس ، جزء واحد

لنذكر من بين الطبعات الحديثة، طبعة ستروفسكي (١٩٠٦ - ١٩٣٣) المسماة « الطبعــة البلدية » خمسة اجزاء ،بورد. تتضمن «المحاولات»،في هذه الطبعة ،ثلاثة اجزاء . وتشكل حواشي ب .ڤيللاي ، جزءاً واحداً فيها . ويشكل معجم بقلم مس غرايس نورتون الجزء الأخير منها

وقد نشر ب . ڤيللاي ، خلال سنتي١٩٢٢–١٩٢٣ في باريس ، وعلى مطابع (ألكان Alcan) ، طبعة مطابقة لنص طبعة بوردو ، مع اضافات الطبعة التي

قامت بها مدموازيل دي غورناي ؛ ثم نشر طبعة ثانية في ثلاثة اجزاء (١٩٣٠ – ١٩٣١) مع تعليق على تأثير هذه « المحاولات » في الادب .

ثم نشرت المطبعة القومية صورة طباعة عن نسخة بوردو في ثلاثة اجزاء

وخلال سنتي ١٩٣١ – ١٩٣٣، نشر ج .بلا تطار، في مجموعة النصوص الفرنسية ، طبعة في ستة اجزاء .

ونشر موريس (را Rat) ، خـــلال سنتي ١٩٤١ – ١٩٤٢ ، على مطابع غارنيه ، في مجموعة الكتّاب الكلاسيكيين ، طبعة في ثلاثة إجزاء تطابق نص نسخة بوردو ،مع اضافات النسخة التي تعود الى ما بعد وفاة مونتاني ، ومع التغييرات الهامة ، ومع مقدمة وحواشي وفهرست، وملحقات عن مونتاني ،ولابويسي، وعن الامثال والحكم المدونة على جدران « مكتبة» مونتاني ، وعن الكتب التي طالعها .

منتخبات

ميزان العلم

ان كتابات الاقدمين ، واقصد منها الكتابات الجيدة ، الكانزة ، المكينة ، لتغريني وتهزني كيف شاءت ؛ اني اجد كلاً منها مصيباً ، بدوره ، بالرغم من تعارضها . ان هذه السهولة التي تتمكن بها العقول القوية من جعل ما تشاء قابلاً للتصديق ، مهما كان غريباً، لكي تخدع بساطة كبساطتي ، يدلني على ضعف برهنتها . لقد ظن البشر ، طيلة ثلاثة آلاف سنة ، ان النجوم تدور ، حتى جاء كليانت (Cleanthes) ،او نيسيتاس (Nicetas)حسب قول تيوفراستفأعلن ان

الارض هي التي تدور في الفلك وحول محورها ، ثم جاء كوبرنيك في عصرنا هذا وثبّت هذا الاعتقاد . فما الذي يجب ان نستخلصه من هـذا التخالف ، واي القولين نصدق ؟ ومن يدري ؟ فربما ظهر رأي آخر بعد الف عام ، يناقض الرأيين الاولين .

لذلك ، حينما نطالَع بأية عقيدة جديدة ، علينا ان نقابلها بحذر معتبرين ان ما جاءت تناقضه كان الصحيح في نظر الناس ، وان من المحتمل ، في المستقبل ، ظهور عقيدة اخرى تناقض العقيدة الحاضرة . قبل ان يؤمن الناس بالمبادىء التي اتى بهـا ارسطو ، كانت مبادىء أخرى تقنع العقل البشري كما تقنعنا ، اليوم ، مبادىء ارسطو . فأية ضمانة تستند اليها هـذه الاخيرة حتى تستحق ان تضع حداً لتفكيرنا ولاكتشافاتنا نهائياً؟ انها ليست في حمى من السقوط ، على مجرى الاجيال ، كما لم يكن سواها في حمىً من ذلك . حينما أقابَـل بحجة جديدة ، يتحتم علي ان افكر بان ما لست انا جديراً بحله ، لا بد من ان يكون حله لدى غيري ؛ لأنني ان جئت اصدق جميع الظواهر التي لا يمكنني ان اثبت صحتها ، كنت غارقاً في سذاجة لا حد لها . ينتج من ذلك ان عامة

الناس ، وربما كنا جميعنا من عامة الناس ، يكون
ايمانهم اقل ثباتاً من دوارة الهواء ، فيمحو آخر تأثير
بها جميع التأثيرات السابقة . على كل من يشعر بأنه
ضعيف ان يجهد ، اولاً ، في حل اموره بحسب ما اقتبس
من تجاربه واختباراته العملية ، وان لم يستطع الى ذلك
سبيلاً ، عليه ان يلجأ الى مشورة العقلاء . منذ كم من
الاجيال ظهر الطب وتطور في العالم ؟ واليوم ، يقال لنا
ان طبيباً معاصراً يدعى باراسيلس (Paracelse) قد غير
جميع القواعد الطبية القديمة وزعم ان هذه القواعد لم
تكن ، حتى الآن، سوى مجلبة لاوجاع البشر ولموتهم .
ربما استطاع هذا الطبيب ان يدعم بالحجج ما ذهب اليه؛
ولكني لن اخاطر باخضاع مصير حياتي الى تجاربه
الجديدة قبل ثبوت صحتها .

يقول لنا المثل : لا تصدقوا اياً كان لان كل واحد
يستطيع ان يقول ما يشاء .

كان احد المدعين بالتجديد والاصلاح يقول لي ،
مؤخراً ، ان الاقدمين كانوا يجهلون طبيعة الهواء
وتحركاته ، ثم يؤكد لي انه يستطيع ان يوضح صحة ما
ذهب اليه وضوح الشمس في رابعة النهار ان شئت ان

اصغي اليه . وبعد ان صبرت على سماع حججه وبراهينه التي كانت تبدو قابلة التصديق قلت له : « كيف كان الاقدمون ، وهم يمخرون عباب البحار ، مسترشدين بمبادىء تيوفراست ، يبلغون الغرب وهم يمخرون نحو الشرق ؟ فهل كانوا يسيرون باتجاه منحرف ، ام كانوا يرجعون القهقرى ؟ فاجابني . لم يكن يحدث ذلك الا بفعل المصادفة : فقلت له ؟ اني افضل ، اذن ، بلوغ النتائج على الاسترشاد بالمبادىء الموضوعة » . ما زالت الاشياء تتعارض وتتناقض . لقد قيل لي انه يوجد في عالم الهندسة (الذي يزعم انه بلغ أعلى درجة من التأكيد بين العلوم) بيّنات حتمية تستخلص الحقيقة من الاختبار ؛ بيد ان بِلتيه قال لي ، وهو عندي ، انه وجد خطين يتجهان احدهما نحو الآخر لكي يتصلا وانه تحقق ، مع ذلك ، انهما لن يتمكنا ، الى الابد ، من ان يتصلا . ثم ارى ان البيرُونيين الارتيابيين لا يستخدمون حججهم وبراهينهم وعقلهم الا لكي يهدموا سلطة الاختبار الظاهري ، فتدهشني مرونة عقلنا البشري الذي اتاح لهم محاربة النتائج الواضحة : انهم يزعمون اننا لا نتحرك ، ولا نتكلم ، وانه لا يوجد وزن ولا حرارة ؛ وكانوا يؤكدون زعمهم هذا بقدر ما نحن متأكدون من

صحة ومن حقيقة ما ينفون. كان بطليموس رجلاًعظيماً وكان قد حدّد تخوم عالمنا؛ وكان جميع الفلاسفة القدماء قد ظنوا بانهم استطاعوا ان يقيسوا العالم ، ماعدا بعض الجزر النائية ، البعيدة المنال ؛ وكان من الهرطقة ،منذ الف سنة،الشك في علم رسم العالم ونظامه،والآراء المتبعة في ما يختص بهذا العلم . وها قد اكتشف الملاحون ، في عصرنا هذا ، اكثر من جزيرة نائية ، بل اكثر من منطقة فسيحة، انهم اكتشفوا عالماً جديداً.فان يكن بطليموس العظيم قد اخطأ في تقديره ، فمن الحق ان اصدق ما يزعمه علماء اليوم، فلربما كان هذا الذي ندعوه العالم شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عما نظن .

الانسان والحيوانات

لنتأمل ، الآن ، في الانسان ذاته ، ولننظر اليه وحيداً،من غير معونة خارجية،مسلحاً بقوته الشخصية، ومحروماً من النعمة والمعرفة الالهيتين اللتين يضع فيهما كل كرامته،وقدرته،واساس كيانه.ليقل لنا هذا الانسان، بفصاحته الطنانة ، على اية أُسس اشاد هذا التفوق الذي يزعم انه يعلو به على باقي المخلوقات ؟ من ذا الذي اقنعه بان دوران هذا الفلك العجيب ، وهذا النور الازلي

الذي ترسله الكواكب السائرة بخيلاء فوق رأسه ، وهذه الامواج الهائلة التي تتراكض بهباج فوق هذا البحر الفسيح ، قد ُوجدت ، منذ الازل لخدمته ؟ أليس من المضحك ان يزعم هذا المخلوق البائس ، الهزيل ، الذي لايملك قيادة نفسه ، والمعرَّض للاهانة من كل شيء ، انه ملك العالم ، هذا العالم الذي يكاد لا يستطيع ان يعرف منه شيئاً ، فكيف به ملكاً له ؟ وهذا الامتياز الذي ينسبه الى نفسه والذي يزعم به انه هو وحده الذي يستطيع ان يميز جمالات هذا العالم الفسيح ، وهو وحده الذي له الحق بان يقدم الشكر لمهندسه الاعظم الذي اولاه هذه النعمة ؟ اذن فلـُير نا اوراق اعتماده التي تخوله هذه المهمة الكبرى .

هل كانت هذه المهمة لا تلقى الا على عاتق الحكماء والعقلاء ؟ هل المجانين والاشرار أهل لهذه النعمة الفائقة ، وهم حثالة العالم ؟

من اين للانسان ، ياترى ، ان يزعم انه سيد الكون ؟ لنتأمل في جوهر هذه الاجرام السماوية الصافي ، وبجمالها ، وعظمتها ، وبدورانها العجيب النظام ، وبمـــا لها من التأثير في حياتنا ، ومصيرنا وحتى في ميولنا ، وكلامنا ،

وارادتنا ، ومزاجاتنا . ان الممالك ، والامبراطوريات، بل كل عالمنا هذا ، ليهتز تحت اقل حركة من حركات هذه الاجرام الهائلة ؛ فأية مقارنة يمكننا ان نضع بيننا وبينها ؟ وكيف ندعي باننا نستطيع ان نعرف كنهها وسننها ؟ ان كل ما نراه في هذه النيرات ليثير اعجابنا ودهشنا . فبأي حق نحرمها من النفس والحياة ؟ فهل ندعي باننا لا نرى الا عند الانسان نفساً ناطقة؟ ماذا، إذن؟ هل رأينا شيئاً شبيهاً بالشمس ؟ فان يكن كل ما لا نراه غير موجود ، فيالضعف علمنا ! أليس من اوهام البشر ان يجعلوا من القمر ارضاً سماوية ، كما زعم) انا كزاغور Anaxagore) ، ويتصوروا فيها الجبال ، والاودية ، ويبنوا البيوت والمساكن ، وينثروا فيها الجاليات البشرية ، ويمهدوا كل ما من شأنه ان يؤمن الراحة ، كما افتكر افلاطون وبلوتارك ، وان يجعلوا من ارضنا كوكباً ساطعاً ؟

ان الادعاء هو مرضنا الاصلي ، الطبيعي : فالانسان يزعم ، بكبريائه ، انه سيد الكون ، وهو اضعف الخلائق ؛ يرى ذاته ، على هذه الارض ، ساكناً بين الاوحال ، منفياً في احقر جزء من العالم ، مع الحيوانات،

والحشرات ؛ وبالرغم من كل ذلك ، فهو يتخيـل ذاتـه اعلى من القمر ، ويضـع السماوات تحت قدميـه . بهذا الادعاء الباطل وبهذه التخيلات ، يقيس نفسه بالله ويدعي التشبه به ، والسيادة على المخلوقات ، ويتصرف بمصير الحيوانات اخوته ورفاقه ويوليها ما يشاء من النعوت والتحقير ؛ اذ كيف يستطيع ان يعرف ما في داخل هذه المخلوقات ، ومتى اطّلع على اسرار تكوينهـا ، والى اي مستند راسخ يستند في رميـه اياهـا باحقر الاوصاف ؟

حينما اداعب هرتي ، فمن يدري ان كانت لا تتسلى معي اكثر مما اتسلى معها ؟ حينما وصف افلاطون العصر الذهبي تحت كوكب زحل ، وضع بين فضائل انسان ذلك العصر التفاهم مع الحيوانات ، ومعرفة مميزات كل منها ، والبلوغ بهذا العلم الى التمتع بالحياة اكثر مما نستطيع ، نحن ، ان نتمتع بها . فهل لدينا دليل اقوى من هذا الدليل على خطأنا وجهلنا في ما يختص بالحيوانات ؟

لقد كان رأي هذا المؤلف الكبير أن الطبيعة التي اعطت الحيوانات شكلها الجسدي لم تنظر ، في معظم

هذا الشكل ، الى نتائجه المقبلة .

لماذا ننسب الى الحيوانات العجز عن التفاهم معنا ولا ننسب هذا العجز الينا ؟ ولماذا نُدهش لعدم امكان هذا التفاهم بيننا وبين الحيوانات ، ونحن لا نستطيع التفاهم مع كثير من البشر مثل جماعة « الباسك » (Les Basques) وال « تروغلوديت » (Les Troglodites) بيد ان كثيرين من العلماء تباهوا بالمقدرة على التفاهم مع الحيوانات مثل ابولونيوس ثيانوس ، و «ميلامبوس» و «تيريزياس» ، و«ثاليس» ، وغيرهم . الخ ...

لقد أخبر بعض علماء الجغرافيا والرحالة في العالم ان بعض القبائل ينصبون ، احياناً ، ولاسباب قبلية ، كلباً ملكاً عليهم . فلا بد، اذن ، لهؤلاء البشر من ان يفهموا معنى كافياً لصوت هذا الكلب ولحركاته. ثم انه لا يخلو الامر من وجود بعض وسائل التفاهم بيننا وبين الحيوانات : ان منها من يتزلف الينا، ومنها من يهددنا ، ومنها من يطلب منا ؛ وكذلك نحن إزاءَها .

ثم اننا ، بالواقع ، نكتشف وسائط تفاهم حقيقية بين الحيوانات ؛ وليس ، فقط ، بين الحيوانات التي هي من جنس واحد ، بل ، ايضاً بين حيوانات من اجناس مختلفة : فالحصان يفهم ، مثلاً ، الغضب في نباح معين

من نباح الكلب ، ويضطرب منه ، بينما هو لا يجد هذا الغضب في نوع آخر من نباحه ؛ وحتى بين الحيوانات التي لا صوت لها ، فاننا نكتشف ، ايضاً ، وسائط تفاهم في معاملتها بعضها لبعض : ان حركاتها تتكلم ، وتتفاوض، على غرار خرسائنا الذين يتنازعون، ويتجادلون ، ويروون اخبارهم بالاشارات .

وماذا نقول عن ايدينا ؟ اننا نسأل بها ، ونَعِدُ ، وننادي ، ونصرف ،ونهدد ، ونطلب ،ونتضرع ،وننفي، ونرفض ونتعجب ، ونعدّ ، ونعترف، ونندم ،ونخشى، ونشك ، ونعلّم ، ونأمر ، ونشجع ، ونحلف ،ونشهد، ونتهم ، وندين ، ونُبرّىء ،ونشتم ،ونحتقر ،ونتحدى، ونمالق ، ونصفق اعجاباً ، ونبارك ، ونُذلّ ونشفق ، ونحزن ، ونيأس ، ونتكلم ، ونسكت ، وماذا بعد ؟ أما رأسنا ، فاننا نوافق به ، .ونصرف ، ونعترف ، وننكر ، ونكذّب ، ونكرّم ، ونبجل ، ونحتقر ، ونطلب ، ونتهلل ، ونتحبب ، ونداعب ، ونخضع ، ونتحدى ، ونهدد ، ونؤكد ، ونستفهم . وهكذا في ما يختص بالحاجبين ، والمنكبين . ان كل حركة من حركات جسمنا تستطيع ان تتكلم إما لغة غير منتظمة، واما لغة يفهمها عامة البشر فهماً طبيعياً ، فضلاً عن الف

باء الاصابع ، وغراماطيق الاشارات التي لا تعبر بعض العلوم الابها ، والتي لا تعرف بعض القبائل لغة سواها ، كما يقول (بلين Pline) .

بعد ان تكلم احد سفراء مدينة ابدير (Apdere) طويلاً امام « اجيس » (Agis) ملك سبارطة ، سأل الملك قائلاً : « والآن ، ياصاحب الجلالة ، اي جواب تريد ان احمله الى مواطنيّ ؟ » . فأجابه الملك : « قل لهم اني تركتك تقول ما شئت ان تقول من غير ان انطق ، انا بكلمة واحـدة » . أليس هذا السكوت نوعـاً من الكلام المفهوم ؟

ثم ما الذي عندنا ولا نجد مثله عند الحيوانات ؟هل يوجد بوليس اكثر تنظيماً ؛ وتوزيعاً فهيمـاً للاعمـال ، ويقظةً مستمرة ، من بوليس النحل ؟ وهل يمكننا ان نقول عن هذا النظام العجيب انه يحدث من غير فهم؟ وماذا نقول عن السنونو التي نراها تعود الينا في اوائـل الربيـع وتبحث في زوايا منازلنا عـن المـكان الأنسب لسكنها ؟ وهل تستطيـع الطيور ان تبني عشاشها بتلك الهندسة الماهرة ، وان تنتقي ، مثلاً ، الشكل الكروي وتفضله على الشكل المربع لأن الشكـل الكروي اهنـأ

لصغارها ، من غير ان تكون عالمة بنتائج ما تصنــع ؟ وحينا تنقــل الى عشاشها تارةً الماء ، وتارةً التراب ، أليس لانها تعلم ان الماء يلين التراب ؟ وحينا تفرشهـــا بالعشب او بالريش اليس لانها تشعر بان اعضاء صغارها النحيفة تحتاج الى الاشياء الناعمة ، وحينا توجــه بابهـا جهة الشرق بالنظر الى مهب الرياح الا تدري ان هذه الريح افضل لها من تلك ؟ لمــاذا تـمـدّ العنكبـوت نسيجها هنا وترققه هناك ،وتلجأ تارة الى هذا النوع من العقد ، وتارة الى ذاك ، ان لم تكن تصنع ذلك بعــد تقدير ، وتصور ، وتصميم ؟ اننا نلحظ ، في معظم مـا تصنعه الحيوانات ، حذقاً ادق من حذقنا ، حتى ليبـدو لنا الكثير من فننا أحط من فنها الذي لا نستطيع ان نقلده . لماذا ننسب الى غريزة طبيعية ، عمياء ، اعمالاً تفوق كل ما نستطيعه طبعاً وفناً ؟ ولكن ، لماذا نجعل من الطبيعة أُمّاً رؤوماً لهذه الحيوانات،أُمّاً تتكفل برعاية احتياجاتها ، اكثر مما تهتم برعاية احتياجاتنا ، وتقودها، كما باليد ، الى تحقيق الاعمال التي تؤمّن حياتها ، بينما هذه الطبيعة تسلمنا الى المصادفات والاقدار ،وترغمنا على ان نُعمل الفكر بعناءومشقة لكي نحصل على الوسائل

التي نحتاج اليها للمحافظة على كياننا ، وتحرمنا من إمكان البلوغ،بكلما نخترعه ونشقي به نفسنا ، الى ما تستطيعه الحيوانات بصناعتها الطبيعية ، حتى ليبدو ما نعزي اليهامن الجهل والغباوة اقرب الى تحقيقضروورياتها وراحتها مما هو عليه فهمنا الالهي ؟

بالحقيقة ، يمكننا ، بالنظر الى هذه الناحية ، ان ندعو الطبيعة خالةً لنا لا اماً ، ان نحن تمسكنا بهذه النظرية.بيد ان الامر ليس كذلك .ان الطبيعة احتضنت وتحتضن جميع ابنائها بذات العطف ، وجهزت كلاً منهم بلا استثناء ، بكل ما هو ضروري لبقائه . ان هذه الشكاوى الهاذرة التي سمعت الناس ينتحبون بها (كما أن آراءهم الجامحة تعلو بهم، تارةً ، الى السحاب، وتهبط بهم ، تارة ، الى الاعماق) ، زاعمين انهم الحيوان الوحيد المهمل عارياً على ارض عارية ، مكبلاً بالقيود ، لا يستطيع ان يتسلح ، او ان يكتسي ،الا مما ليس له ؛ بينما جميع المخلوقات الاخرى قد كستها الطبيعة إما بأصداف ، واما بأغماد وقشور ، وإما بوبر ، او بصوف ، او بجلد ، او بريش ، حسب متطلبات اجسادها ؛ وقد سلحتها إما باظافر ، او بانياب ، او بمخالب ، او بقرون ، لكي تهاجم او

تدافع ، وعلمت بعضها السباحة ، وبعضها العدو ، وبعضها الطيران ، وبعضها الغناء ، حيث لا يستطيع الانسان الا ان يبكي وينتحب . ان هذه الشكاوى هي شكاوى خاطئة ، زائفة ، اذ انه يوجد في العالم نظام ، وترتيب ، وعدل اكثر مما نظن .

يتدرَّع جلدنا بمناعة كافية ضد اعتداءات الزمان ، ودلالة على ذلك وجود امم لم تحتج ، حتى اليوم ، الى استعمال الألبسة . لم يكن « الغاليون (Gaulois) » الاقدمون يكتسون ، وكذلك جيراننا الايرلنديون ، بالرغم من جوسمائهم البارد . ولكننا نتأكد من ذلك بانفسنا لاننا نشاهد كل جزء نريد ان نكشفه من جسمنا للهواء وللريح ، يكتسب المناعة ضدهما ، سواء أكان الرأس ، ام الوجه ، ام الأرجل ، ام الايدي ، ام الافخاذ ، ام الكتفين . ان معدتنا هي الجزء الاكثر تأثراً بالبرد ، لأنها اداة الهضم ؛ ومع ذلك ، لم يكن اجدادنا القدماء يهتمون بتغطيتها ، وكانت نساؤهم، على نعومة اجسادهن ، يتركنها مكشوفة حتى السرة . وليست الرباطات والاقمطة ضرورية للاطفال ، فان الامهات « اللاسديمونيات

(Lacedemoniennes) ، كن يربين اطفالهن تاركات لاعضائهم كل حرية التحرك ، من غير رباطات ولا لفائف. الخلاصة ، اننا لا نستطيع، ان نحن امعنا النظر، أن ننكر ان الطبيعة تعدل في قسمتها بيننا وبين اخوتنا الحيوانات .

ماذا اعرف ؟

قال بروتاغوراس : كل شيء في الطبيعة يدفعنا الى الشك ، واننا نستطيع ان نعارض في كل شيء ، وحتى في استطاعتنا المعارضة في كل شيء ؛ وقال نوزيفانيز : لاشيء، من جميع الاشياء الظاهرة، يمكننا ان نثبت وجوده او عدم وجوده، ولا يوجد شيء مؤكد الا عدم التأكيد ؛ وقال برمينيدس : لايوجد سوى شيء واحد في الكون ، وهو الكون ذاته ؛ وقال زينون : لايوجد شيء ، حتى ولا الكون الواحد.

لاوحدة في الوجود : فان وُجد شيء واحد فانه يوجد إما في آخر وإما في ذاته ؛ فان وُجد في آخر فانهما اثنان ، وان وُجد في ذاته فانهما ، ايضاً ،

اثنان : الفاهم والمفهـوم . ليست ، اذن ، طبيعـة الاشياء ، بحسب هذه الآراء ، سوى ظل زائف وباطل .

لايليق بالمسيحي ان ينطق بمثل العبارات التالية : الله لايستطيع ان يموت ؛ الله لايستطيع ان يخالف ذاته؛ الله لايستطيع هذا الشيء او ذاك . لايجوز لنا ان نحصر قدرة الله في نطاق لغتنا الضيقة ، ولايليق بنا ان نقول شيئاً عن الله الا مشفوعاً بالاكرام والتبجيل .

ان للغتنا ضعفها وشوائبها ، كما ان لكل شيء ضعفه وشوائبه ؛ واری ان معظم اسباب الخلافات في العالم يعود الى التباسات هذه اللغة . ان معظم الدعاوى التي نتخاصم فيها ونترافع تنجم عن اختلافنا في تفسير القوانين والشرائع! ومعظم الحروب تنبع من عدم وضوح الاتفاقات والمعاهدات الدولية . كم من خلافات نشبت بسبب عدم الاتفاق على معنى هذه الكلمة الصغيرة: «كذا»!

اني ارى ان الفلاسفة الارتيابيين لا يستطيعون ان يعبروا عن افكارهم في اية لغة ، بل يلزمهم لغـة خاصة بهم لا تأكيد فيها ؛ لانهم ، ان قالوا اننا نرتاب في كل شيء ، فقد أكدوا ، على الاقل ، انهم يرتابون . واني ارى اللجوء الى الاستفهام بمثل هـذه العبارة :

ولقد نسمع في الجدالات الدينية ، مثل هذه العبارات التأكيدية : ليس باستطاعة الله ان يكون موجوداً في السماء وعلى الارض ، وفي كل مكان في وقت واحد . فالساخر يستطيع ، آنذاك ، ان يقول : مما يعزّي الانسان ، اذن ، ان يكون الله غير قادر على كل شيء ، فلا يستطيع ، مثلاً ، ان ينتحر ، بينما نحن نستطيع ذلك بفخر ، وانه لا يستطيع ان يجعل المخلوقين للموت خالدين، او يجعل الذين عاشوا ، لم يعيشوا ؛ وانه لا سلطة له على الماضي سوى نسيانه ، ولا يستطيع ان يمنع عشرة وعشرة من ان تساوي عشرين . ان مثل هذا الكلام لا يجوز ان يخرج من فم الرجل المسيحي لانه يضع الله والانسان على مستوى واحد ، ويقيسهما بمقياس واحد .

حينما نقول إن لا نهاية الدهور الماضية والمستقبلة ليست سوى لمحة في نظر الله ، وان جودته ، وحكمته ، وقدرته هي شيء واحد مع جوهره ، اننا نقول ذلك بالكلام ، ولكن عقلنا لا يستطيع ان يفهمه ؛ وهكذا نريد ، بتبجحنا ، ان نُخضع الالوهية لمنطقنا ، ومن

هنا تنبع الاوهام والاخطاء التي تملأ العالم ، لان الانسان يريد ان يزن بميزانه الحقير عظائم تفوق ادراكه بما لا يُحد .

في التمرين

من الصعب ان يستطيع الخطاب ، والشرح ، والتلقين ، مهما بذلنا جهدنا في الإصغاء والاقتباس ، ان تكون لها القوة الكافية لكي تقودنا الى إحكام أعمالنا ان نحن لم نضف اليها تمريننا الخاص الذي به نُعدّ انفسنا للبلوغ الى ما نصبو اليه من المقدرة والجدارة ؛ فان لم نفعل ، نجدنا عاجزين عن الكفاح الظافر يوم نلتقي والمصاعب وجهاً لوجه . لذلك نرى بين فلاسفة العالم ان الذين ارادوا البلوغ الى مقربة من الكمال لم ينتظروا ، في الراحة والاستسلام ، هجوم عاديات الدهر عليهم ومفاجأتها اياهم غير مستعدين ولا متسلحين للقتال ، بل قضوا الاوقات الطوال يتأهبون لملاقاتها: فمنهم من تركوا ما تملك ايديهم من خيرات لكي يمارسوا الفقر الاختياري، ومنهم من مارسوا التقشف والاشغال الشاقة لكي يكتسبوا المناعة ضد المشقة والالم ؛ ومنهم من حرموا انفسهم من أعز الاشياء كالنظر ، والاعضاء التناسلية ، هرباً مما تغري

به وبما تجلبه من مخاطر . بيد ان الموت هو الشيء الأهم في مصيرنا ، وهو الشيء الاوحـــد الذي لا تتاح لنا ممارسته. اننا نستطيع ممارسة الالم، والخجل ،والفاقة ، وجميع ضروب المشقات والمصاعب ؛ اما الموت ، فـلا يمكننا ان نذوقه سوى مرة واحدة .

لقد ُوجد ، قديماً ، اناس مقتصدون هكذا بالوقت حتى انهم حاولوا ان يختبروا الموت ذاته،فشحذوا عقلهم وحواسهم عند اقترابهم منـــه حتى يتبينوا ما هو هذا المجاز الغريب ؛ لكنهم لم يعودوا لكي ُيدلوا الينا بما تبينوا وعلموا .

كان الامبراطور الروماني الطاغية كاليغولا قد حكم بالموت على رجـل روماني يتصف بحزم وعزم نادرين ، يدعى كانيوس يوليوس . فحينما جاء الجلاد لكي ينفـذ حكم الاعدام فيه،سأله احد الفلاسفة من أصدقائه،قائلاً: « والآن ، ياكانيوس ، مـا هو شعورك النفسي ، وبماذا تفتكر ؟ فاجاب : اني افتكر بجمع قوى نفسي لكي استطيع ان ارى ، في هذه اللحظة القصيرة التي الاقي فيها الموت ، اين تذهب النفس ،والى اين مصيرها ،حتى اذا علمت شيئاً من ذلك عدت ، ان امكـــن العود ،

فأطلعت عليه اصدقائي » . ان هذا الرجل فيلسوف ، ليس فقط حتى الموت ، بل في الموت ذاته . فيالها من شجاعة تتحدى الموت ، بل تريد ان تضعه على منضدة التشريح لكي تسبر غورسره !

يلوح لي ، مع ذلك ، انه يوجد لدينا وسيلةنستطيع بها ان نألف الموت ، وان نختبره بعض الاختبار ؛ فان لم يكن اختباراً كاملاً ، فعلى الاقل محاولة مفيدة تقوي معرفتنا وعزيمتنا ؛ وان لم نكن نستطيع ان نتصل بالموت مباشرة،فاننا نستطيع ان نحاذيه ونتعرف اليه ؛ فليس عن عبث أن لفت الفلاسفة انظارنا الى الشبه الكبير الذي نشاهده بين النوم والموت: فكم نحن نمر بسهولة من اليقظة الى الرقاد ! وكم نحن نفقد ، بلا مبالاة ، الشعور بالنور وبنا انفسنا .

ربما ظهر الرقاد ، الذي يحرمنا من كل عمل ومن كل شعور ، غير ذي فائدة، ومضاداً للطبيعة ، لو لم تكن الطبيعة تعلمنا به أنها أعدتنا للموت كما أعدتنا للحياة ، وانها ، منذ هذه الحياة ، ترينا الحالة الابدية التي تعدها لنا ، بعد هذه الحياة ، لكي تعودنا على قبولها من غير خوف .

غير ان الذين حصل لهم أن أغمي عليهم لعارض ما فقدوا كامل شعورهم ، لأن هؤلاء ، على ما اظن ، قد اقتربوا ، آنذاك ، من رؤية وجه تلك الحالة الحقيقي .
ان اللحظة التي نمر بها من حالة الحياة الى حالة الموت تحول سرعتها دون وجعنا وعنائنا ولا يجب ان نخشاها ، بل اننا نخشى ، فقط ، اللحظات التي تقربنا منها ، وهذه اللحظات قابلة للاختبار .

كم من أشياء تضخمها لنا مخيلتنا اكثر مما هي عليه بالحقيقة . لقد قضيت القسم الاكبر من حياتي في صحة وعافية تامتين ، وكانت هذه الحالة الممتلئة نشاطاً وبهجة تجعلني ارى المرض شيئاً راعباً حتى بليت به بدوري فوجدته أهون من خوفي منه .

هوذا ما اختبره كل يوم : هل انا دافىء في غرفة دافئة بينا الرياح تعصف خارجاً ؟ فاني أشفق ، آنذاك ، على المقيمين في العراء ؛ ام هل انا ،ذاتي ،في العراء بينما الرياح تعصف قاسية ؟ فها انا لا اكاد اشفق على نفسي.

كان يخيل لي ان الاقامة ، وحيداً ، في غرفة موصدة حالة لا تحتمل ؛ ولكنني تعودت ، لظروف

خاصة ، ان اقيم في مثل هذه الغرفة اسبوعاً ، وشهراً ، احتملن ، بسهولة ، الضجر ، والضعف ، والوحدة ؛ وانني كنت ، وانا متمتع بصحة جيدة ، أشفق على المرضى اكثر مما أشفقت على نفسي حينما بُليت بالمرض ، وبما لان خوفي من المرض كان اشفق علي من المرض ذاته ، لذلك ارجو ان اجد الموت أخف وطأة علي من خشيته .

خلال الحرب الاهلية الثانية، أو الثالثة في فرنسا، ذهبت ، ذات يوم ، اتنزه مع رفاق لي على بعد نحو ميل من منزلي ، وكان الجواد الذي امتطيه مهراً غير مروض . وقد حصل لي في طريق العودة ، أن احد الرفاق الضخام الجثة ، وكان يمتطي جواداً هائلاً بالقوة والحجم ، اراد أن يدهشنا بفروسيته ، فدفع جواده من خلفي بسرعة جنونية ، ولكن الجواد جمح به وصدمني صدمة هكذا عنيفة حتى انني سقطت مع جوادي على بعد اثنتي عشرة خطوة ، مهشماً ، فاقد الوعي . اما بقية الرفاق ، فبعد ان بذلوا جهدهم في ايقاظي ولم يفلحوا ، حملوني بين ايديهم الى منزلي كالميت . وبعد ساعتين ، بدأت اتحرك وبدأ الدم يسيل ، ثم

يتدفق من فمي . ولما عدت الى الحياة ، ظننتني عائداً اليها من الموت ، أو انني عائد من الراحة والسكينة الى الالم والاضطراب فهل كان الموت غير ما كنت عليه وانا فاقد كل شعوري ؟

في محبة الآباء للأبناء

بما ان الله وهبنا عقلاً نستطيع به ألاَّ نكون خاضعين ، كالحيوانات ، خضوعاً تاماً لسنن الطبيعة ، بل قادرين على العمل والتفكير بحرية ، لذلك ينبغي لنا ان نسعى ، ما استطعنا الى ذلك سبيلاً ، لكي نتحرر من عبودية هذه السنن ، ولكي يكون العقل وحده مرشد رغائبنا واهوائنا .فانا لا أحب، في ما يختص بي، هذه الاندفاعات التي نسير وراءها على غير هدىً من عقلنا وحكمتنا: فمن ذلك ، اني لا أحبذ هذا التهافت على تقبيل الاطفال في الايام الاولى من ولادتهم ، وهم لم يتحلوا ، بعد ، بشيء يستطيعون به ان يحببونا بهم ،حتى اني لم احتمل تربيتهم بالقرب مني وهم في تلك السن : ان المحبة الحقيقية ،المنظمة ، يجب ان تولد وتنمو مع نمو مقدرتهم على مبادلتنا الشعور والعاطفة ، لكي نستطيع ان نحبهم بعقلنا وقلبنا حباً ابوياً حقيقياً ، او

لكي نكبح جماح عاطفتنا الطبيعية بلجام عقلنا يوم يكونون غير أهلٍ لهذا الحب ؛ لكننا نسلك ، غالباً ، بعكس هذه الحكمة، فنضحك لنزق اطفالنا ، ونفتخر بشيطنتهم ، ونشاركهم في العابهم مهما كانت تافهة ونابية ، فنحبهم ، لا كاطفالنا ، بل كسعادين نتلهى بهم؛ ولربما انفقنا بافراط على نفحهم بشتى اللعب في حداثتهم، ثم عجزنا عن تقديم المال الضروري لهم في كبرهم. ويبدو ان الغيرة التي تأخذنا حينما نراهم يتمتعون بلذائذ الحياة ويزهون في العالم تجعلنا اخيراً ، اشد تقتيراً عليهم ، فكأننا نتضايق منهم حينما يخيل لنا انهم يمشون على كمابنا لكي يحثونا على الخروج من الحياة . فان كنا نخشى ذلك ، وبما ان سنة الحياة تقضي بان لا يستطيع ابناؤنا ان يكونوا ، ولا أن يحيوا ، الا على حساب كياننا وحياتنا ، فلا يجب ان نفكر ، اطلاقاً ، بأن نكون آباء .

اما في ما يختص بي ، فاني ارى من القساوة والظلم ألا " نشرك أبناءنا في خيراتنا واعمالنا حينما يكونون اهلاً لذلك ، وألا نضع حداً لاهتمامنا برفاهيتنا لكي نوفر لهم شيئاً من الرفاهية ، بما اننا انجبناهم تحت هذه

الشروط الطبيعية .

ومن الظلم ، كذلك ، ان نرى اباً هرماً ، ونصف ميت ، ينعم ، وحده ، في زاويتــه ، بخيرات تكفي للقيام بأود جملة ابناء فيعرضهم ، بهذا الحرمان ، لاضاعة اجمل سني حياتهم ، حتى يدفعهم اليأس الى سلوك طرق ملتوية لاجل سد احتياجاتهم . فقد رأيت كثيراً مــن الشبان، ابناء العائلات، الذين اعتادوا السرقة والاختلاس لسبب بخل والديهم عليهم حتى اصبحت هذه النقيصة في نفسهم كالداء العضال ؛ كما اني اعرف منهم شاباً نبيل المحتد فوجىء وهو يسرق مصاغ سيدة مسنَّة متسللاً الى غرفتها ليلاً .وقد اتيح لي ان اتحدث الى هذا الشاب التاعس قاصداً ارشاده لاني كنت على صلة صداقة بعائلته، فاعترف لي بانه دُفع الى سلوك هذا الطريق الشائن من جراء قسوة وبخل والده، وقد سار في هذا الطريق منذ منذ زمن طويل حتى تأصلت ملكة السرقة في نفسه واصبح غير قادر على التخلص منها .

وقد رُوي لي عن احد النبلاء انه مارس في شبابه مهنة السرقة لسبب بخل والده عليه حتى اذا ما توفي الوالد واصبحت كل الثروة في يد الابن اراد ان يترك هذه

المهنة السافلة فلم يفلح ، اذ انه كان كلما دخل حانوتاً وأعجبه شيء فيه لم يسعه الا ان يسرقه ثم يبعث ، بعدئذٍ ، بثمنه الى صاحبه .

ولديَّ اخبار كثيرة من هذا الطراز تدين الآباء البخلاء وتحملهم مسؤولية تشرد ابنائهم . ومن الآباء ايضاً ، من يستأثرون بثروتهم ويحرصون عليها في شيخوختهم بغية جعل ابنائهم يحتاجون اليهم ، ويحترمونهم . وقد فات هؤلاء الآباء ان الاحترام في هذه الحالة ليس سوى تزلف ، وانه بعيد كل البعد عن المحبة التي يجب على الآباء ان يوحوها ، بسلوكهم الشريف ، لابنائهم . (بالحقيقة ، ليست الشيخوخة ، فقط ، هي التي تدفع الى الحرص والبخل ، بل كل بلاهة ، كما يقول ارسطو) .

اني استنكر كل عنف في تربية الاولاد ، اذ يجب علينا ان نهيئهم للشرف والكرامة والحرية ، لان العنف هو ضرب من العبودية ، ولان ما لا نستطيعه بالاقناع والحكمة لا يمكننا ان نستطيعه بالقوة . هكذا ربيت محاطاً بالأناة والعطف ، وقد قيل لي ، بالاضافة الى ذكرياتي ، انني لم أُضرب في صغري سوى ضربتين خفيفتين من قضيب ليّن . وهكذا عاملت الاطفال الذين

ُرزقتهم ، ولكنهم كانوا يتوفـــون وهم لا يزالون في طور الحضانة، الا ابنة واحدة سلمت لي ، وهي ليونورا، التي لم نستعمل سوى الكلام اللطيف في اصلاح هفواتها الصغيرة،وقد ساعد على هذه المعاملة حنان امها الكثير . اني لم اجد لاستعمال القضبان في تربية الاولاد من نتائج سوى جعل نفوسهم اكثر جبناً ، واكثر عناداً وخبثاً .

ان اردنا ان نكون محبوبين من ابنائنا ، او ان اردنا ، على الاقل ، ألاّ نكون مكروهين منهم ،وألاّ نجعل لهم سبباً لكي يشتهوا موتنا والتخلص منا، علينا ان نعتني بحياتهم اعتناءً حكيماً ، مخلصاً ، وألاّ نتزوج في سن مبكرة لكي لا يصبح ابناؤنا كأنهم اخوة لنا وكأننا لاسلطان لنا عليهم . اقول ذلك لطبقة النبـــلاء والاغنياء الذين يعيشون من دخلهم، لا لطبقـة الفقراء الذين يحتاجون الى مساعدة ابنائهم باكراً . اما انا، فقد تزوجت في سن الثالثـــة والثلاثين ، ولكني افضل ، مثل ارسطو ، سن الخامسة والثلاثين . اما افلاطون ، فلا يريد ان يتزوج الرجـل قبل سن الثلاثين ، ولكنه يسخر من الذين يتزوجون بعد الخامسة والخمسين .

في ان الفلسفة تعلمنا كيف يجب ان نموت

قال شيشرون : ليست الفلسفة سوى التهيؤ للموت. ربما قصد شيشرون بهذا القول ان التأمل العميق يشبه انخطاف النفس عن الجسد ويهيؤها لمؤالفة الموت ، او ان كل حكمة البشر تؤول ، في النهاية ، الى تمرين النفس على عدم الخوف من الموت . بالحقيقة : او أن العقل يهزأ ، او أن عليه ان يهدف الى ارضائنا ، والى مساعدتنا على التمتع بالحياة ، وعلى العيش براحة ، كما يقول الكتاب المقدس . لاشك في ان جميع آراء الناس تتفق على ان اللذة هي غاياتنا ، بالرغم من اختلاف الآراء على نوع هذه اللذة ، لانه من ذا الذي يصغي الى القائل بان غاية وجودنا هي العناء والشقاء ؟

ليست منازعات الفلاسفة ، في هذه الحالة ، سوى منازعات كلامية ، فيها من العناد والتحذلق اكثر مما تحتمل هذه المهنة المقدسة . بيد ان الانسان لا يستطيع ان يفصل نفسه عن اي دور يلعبه : فمهما قال المناقضون ، فان الفضيلة ذاتها لا غاية لها ، في النهاية ، سوى اللذة والسعادة . اللذة ؟ اني اريد ان اصك مسامعهم بهذه الكلمة التي لا تروق لمزاجهم ؛ وان تكن اللذة تعني متعة

عظمى ، ورضىً بالغاً ، فانها مدينة بذلك للفضيلة بوجهٍ خاص . ثم ان من خصائص الفضيلة انها تجعلنا نحتقر الموت ، وتريح حياتنا من هذا الكابوس الدائم ، وترد الينا طعمها الحلو ، الصافي ، الذي بدونه لا لذة لنا في الحياة . حتم الموت علينا، فان ظلت فكرته تروعنا، فكيف يمكننا ان نخطو خطوةً واحدةً الى الامام من غير حمىً ؟ اننا نرى عامة البشر يتطيرون من ذكر الموت، ويجهدون في نسيانه ،ولكن الفيلسوف يتحداه ،وبذلك يتحرر من شبحه ؛ وبما ان الموت لا يعلم زمانه ولا مكانه ، فالفيلسوف ينتظره بشجاعة تامة في كل زمان ومكان لانه استعد له الاستعداد التام .

...

بالحقيقة ، ان لم تساعدنا الطبيعة ، فمن الصعب ان تكفينا الفنون والصناعات .لست ، من طبيعتي ، رجلاً كئيباً ، بل مفكراً . لم افكر ، قط ، بشيء ما اكثر مما فكرت بالموت ، حتى في العهد المجوني من شبابي ، بين الحسان والملاهي، زمان ظنني احدهم ، وانا اتحدث الى صديق ، انني اشكو له غيرتي على من أحب ، او ضعف املي في من أحب، بينما كنت اتحدث عن شاب كان

قد فوجىء بحمى حادة لم تلبث ان أودت بحياته وذلك بعد عودته من احدى الحفلات الممتعة ، الممتلئة باللهو والحب واللذات ، كما كنت انا ، ذاتي ، آنذاك ؛ ولكنني لم اكن مرتاعاً لهذا الحادث اكثر من سواي . لا شك في اننا لا نمر بمثل هذه الاحداث الفاجعة مرور الكرام، ولكننا نستطيـــع ، بفلسفتنا ، ان نألفها يوماً اكثر من يوم . اما في ما يختص بي ، فقد تحديت الحياة اكثر من اي رجل آخر، فلم، يزد املي بها العهد الذي كنت اتمتع فيه بكامل الصحة والعافية،ولم تزد يأسي منها الامراض والآلام التي عانيتها في ما بعد ، بل كنت اقول ، دائماً في نفسي: «ان ما يمكن حدوثه يوماً ما ، يمكن حدوثه، ايضاً ، هذا اليوم ». بالحقيقة ، ان المصادفات والاخطار لا تقربنا من الموت الا قليلاً ، او انها لا تقربنا منــــه مطلقاً بصفتها الخاصة ، لان الموت ، سواء أكنا فـوق امواج البحر ام في منازلنا ، وسواء أكنا في وطيس المعركة ام في زاوية راحتنا ، يظل قريباً منا ذات القرب .

كان يخيل لي ، دائماً ، ان الموت لن يترك لي الوقت الكافي لكي أتم ما اريد اتمامه في الحياة . كان احد

الاصدقاء يقلب اوراقاً لي على منضدتي فعثر على ورقة كنت قد سجلت عليها ما اريد ان يصنع ذويّ بعد وفاتي ، فنظر الي مستفهماً ، متعجباً ، فقلت له اني بالرغم من امتلاكي الصحة والعافية التامتين حينما كتبت هذه الوصية ، ولكن ، بما انني كنت على بعد بضعة اميال من منزلي ، أسرعت باعلان ارادتي احتفاظاً من ان يداهمني الموت قبل اعلانها ، حتى اذا فاجأني الموت كنت قد سبقته الى ما يجب علي ان افعل .

علينا ان نكون ، دائماً ، شادين وسطنا ومستعدين للرحيل ، وغير متكلين الا على انفسنا .

لاجل سد ثغرة

في الامور العمومية والخاصة

كان المرحوم والدي رجلاً ثقّفه الاختبار ، واهلته مواهبه الخاصة لأصالة الرأي . قال لي ، ذات يوم ، انه يسعى الى اقامة مراكز في المدن يستطيع الذين لهم حاجة ما ان يأتوا فيسجلوها امام موظف معين لهذه الغاية ؛ ومثلاً على ذلك : ابحث عمن يريد ان يشتري جواهر ،

او البحث عمن يريد ان يبيع جواهر ؛ هـــذا يطلب رفيقاً له الى باريس ؛ وذاك يحتاج الى خادم تتوفر فيـه شروط معينة ؛ وآخر الى معلم ؛ وآخر الى عامل ؛ كل حسب حاجته : وذلك مما يسهل الأخذ والعطاء ، وتبادل الخدمات والمنافع ، والوقوف على حقيقة الاحــوال التجارية ، والصناعية ، الـخ ..... فيتعارف الناس ، ويعلم كل منهم ما يحتاج اليـه الآخرون ؛ لانه يوجـد ، دائماً ، وفي كل مكان ، حاجات تتنادى ، فان لم يعمل العاملون على ان تتلاقى ، وان يكمل بعضها بعضـــاً ، تجمدت المعاملات الضرورية ووقع الكثيرون في العوز والفاقة .

اني اخجل ، حينما اسمع في عصرنا هذا ، ان اناساً ذوي قيمة واعتبار قد هلكوا جوعاً ، ومن بين اولئك : ليليوس غريغوريوس في ايطاليا ، وسيبستيانوس كاستاليو في المانيا ؛ واني اعتقد انه يوجد في العالم اناس صالحون لو علموا بامر مثل هؤلاء المساكين لـكانوا اسرعوا الى نجدتهم بجميع الوسائل ، ونجوهم من هذا المصير الفاجع . من هنا فائدة وضرورة مكاتب الاستخبارات والاستعلامات العمومية في البلاد .

من جملة تدابير والدي الحكيمة ، التي امدحهـــا واعترف بانني لم اتبعها ، تنظيم سجـــل خاص بنفقات

البيت حيث تـدوّن الحسابات الصغير والكبيرة ، والمدفوعات ، والمشتريات ، وقد عهد بهـذا السجل الى كاتب ذي خبرة بالحساب والاقتصاد وكلفه ، بالاضافة الى هذه المهمة بمسك دفتر يوميات يدون فيه ما يستحق تدوينه من الحوادث البيتية ، يوماً فيوماً ، يطيب ، في في ما بعد ، مطالعتها واعادة ذكرياتها ؛ومثلاً على ذلك: متى بُدىء بهذا المشروع ؟ومتى تم ؟ وكيف تم ؟وماذا حدث من امور هامة : أسفار ، وتفتيش ، وزوجات ، ووفيات ، واخبار مفرحة او محزنة ، واقالة الخدم ، واسباب هذه الاقالة ؛ وبالاختصار ، جريـدة جامعـة لكل ما يحدث من هام في حياة العائلة . ولكني آسف، في ما يختص بي ، لاني لم اتبع هذا التدبير الحكيم .

كيف يجب ان نحكم على افعال الغير

انا لا احكم على غيري بحسب ما انا عليه ، ولا اقع في هذا الخطأ الشائع ، لاني اصدق ، بسهولة ، صلاح اشياء عند سواي لا اراها صالحة عندي ؛ فان ذهبت هذا المذهب ، او ذاك ، فلا ارغم الناس على اتباعه، كما يفعل معظم البشر، ولكني اقتبل ما يشبهني وما يخالفني على السواء،راغباً في تحرير الغير من اوضاعي

ومبادئي الخاصة ، فلا انظر اليه الا من حيث هو ، ذاته ، لا بالنسبة الي ؛ وان كنت لست متقشفاً ، فلا يمنعني نفوري من التقشف من احترام الرهبان المتقشفين ومن تفهمي لنفسيتهم ، بل ربما احببتهم بقدر ما يختلفون عني. اني ارغب كل الرغبة في ان نحكم على كل من الناس بمفرده ، ولا اريد ان يطبق احد علي قواعد المصطلحات العامة ؛ فضعفي لا يغير عاطفتي نحو الاقوياء ، ولا تقديري لهم ؛ وبينما انا ارى ذاتي من طين الارض ، فاني لا أنكر سمو النفوس البطولية ؛ لذلك يكفيني ان يكون حكمي عادلاً ان لم تكن هكذا ميولي ، وان تكون ارادتي قوية ،ثابتة ، ان لم تكن هكذا خطواتي.
اننا في عصر ينفر من ممارسة الفضيلة ، بل يهزأ بالفضيلة ويعدها كآية تعلق على جدار غرفة ، او كقرط تحلى به الاذن ؛ اما الافعال التي يعدها فضائل فليس لها جوهر الفضيلة بل شبهها الزائف ، لان الكسب ، والمجد ، والحرص ، واسباباً اخرى خارجة عن نطاق الفضيلة هي التي تدفعنا الى ان نقوم بهذه الافعال ؛ حتى العدالة ، والشجاعة ، والاستقامة ، التي نمارسها بروح هذا العصر ، لا نمارسها الا بقدر ما تكسبنا تقدير الناس ، بيد ان

الفضيلة لا تعترف الا بما يُفعل بها ولاجلها .

...

ما زالت احكامنا مريضة ، وما زلنا نتساق مع اهوائنا الفاسدة . اني ارى معظم اصحاب العقول ، في عصرنا هذا ، يجهدون في انكار مجد انبل الاعمال التي قام بها الاقدمون ، ناسبين اليها احقر الاسباب والنيات.

يالها من شطارة ! ليأتوني باعظم وأسمى عمل ، فاني استطيع ان انسب اليه ، بصورة قابلة للتصديق، خمسين نية سيئة . الله يعلم كم تستطيع ارادتنا الباطنية ان تتخذ من الوانٍ مختلفة ومن صور متناقضة ! ان الجهد الذي يبذله هؤلاء المكابرون في تحقير اولئك الرجال العظام ، والصرامة التي يحكمون بها عليهم ، فما احوجهم الى ان يسلكوهما تجاه انفسهم ؛ اما انا ، فلست اخشى من ان اغمر بالمجد والكرامة ادمغةً ممتلئة من الحكمة وقد اتت قدوة لعامة البشر، بيد ان جهود تصورنا تظل ادنى مما يستحقون ان يقال عنهم. ان اهل الخير هم الذين يصورون الفضيلة باجمل صورها ؛ ولا يضيرنا في شيء أن يصل بنا اندفاعنا الى مثل هذه العواطف السامية ؛ اما الذين يرفضون البلوغ الى هذا

الجو ، فانهم يرفضون إما لجبنهم ، وإما ، بالاحرى ، لافتقارهم الى نظر ثاقب لكي يروا الاشياء بوضوح ، والى مخيلة قوية لكي يستطيعوا ان يتصوروا بهاء الفضيلة ونقاءها . ذكر بلوتارك ان الكثيرين من اهل زمانه عزوا سبب موت (كاتون Caton) الفتى الى خوفه من قيصر ، ومنهم من عزاه الى الطمع . يالها من جهالة ! لا شك في ان الطبيعة قد جادت بامثال كاتون لكي يُظهروا للملأ الى اي جو من السمو تستطيع ان تبلغ الفضيلة البشرية .

في كتاب « المحاولات »

اعرف جيداً و حينما يقف احد النقاد على لغة « المحاولات » ، اني احب ان يلزم الصمت . لا يرفع النقد الكلام بقدر ما يفسد المعنى ، حينما ينحرف النقد لكي يلذع . لم اكن سوى شاهد في محاولاتي ، ولو اني اردت ان اعلق عليها ، لكنت اضفت اليها أضعافها. كم رويت فيها اخباراً لا يفهمها الا الذين يعنون الفكر في ما تكنُّ من معان يستلزم شرحها محاولات لا نهاية لها ! لم اقصد من اخباري ، ومن رموزها ، امثالاً تحتذى ، ولم اجعل منها سلطة ولا حيلة ، ولست انظر

اليها كما هي فقط ؛ انها تحمل في طيها بذور مادة اغنى واجرأ بالنسبة الي ، اولاً ، اذ اني لم ارد ان اكـــون اكثر ايضاحاً ، ثم بالنسبة الى الذين يكتشفون طريقـة كتابتي . اما بالنظر الى فضيلة الكلام ، فاني لا اجـــد فرقاً بين الذين لا يعرفون ان يقولوا سوى القـول السيء وبين الذين لا يعرفون ان يقولوا سوى القول الحسن .

...

اريد ان اقول كلمة عن هذا الاثر الادبي الذي يرى لي فيه اصدقائي استحقاقاً؛ ولواني لقيت تشجيعاً من العموم، وأملت فيهم من يفهمني حقيقة الفهم ، لكنت نشرت افكاري الأخرى الاعمق غوراً؛ ولكنني كنت في حاجة الى علائق تجذبني وتدفعني الى الامام . لقد كنت عدواً لكل تزييف ، ولم اشأ ، قط ، ان اصارع الهـواء ، وأداعب الاحلام في الاشياء الرصينة. لو كان لي صداقات اكثر ،لكنت اشد انتباهاً، وأثبت حكماً، فياستعراضي وجوه هـذا الشعب ، لم ايأس من وجـود من يحذو حذوي ويكمل عملي . ان لي ، من طبعي ، لغة فكهة خاصة بي ، ولكنها ذات شكل لا يروق للعامة ، لانهـا متراصة ، غير متنظمة ، منقطعة ، مفردة . لست مـن

الذين باستطاعتهم الكتابة المترسمة ، الذين لامادة لهم سوى تزويق الكلام وملقه ؛ ولا قدرة لي على عرض عواطفي امام الناس، ولا توددي اليهم، لاني قليل الايمان بهم واكره ان اقول لهم ، او عنهم ، ما لا اعتقد فيه الصدق ، وبذلك ابتعد عن اللغة الرائجة في هذا العصر التي تُذل الكلام وتخفض شأنه ، فالحياة ، والنفس ، والتقى ، والعبادة ، والرقيق ، والعبد ، هي ، على لسانهم، كلمات تُبتذل ؛ وحينما يريدون ان يُشعرونا فيها بارادة اكثر صدقاً ، واكثر احتراماً ، فلا يجدون لذلك تعبيراً .

اني اكره الملق أشد الكره ، ولذلك اندفع ، بطبيعتي ، الى الكلام الجاف ، الصارم ، الفج ، الذي يرى فيه ، من لا يعرفني، نوعاً من الاحتقاروالازدراء؛ ولكنني احترم كل الاحترام بعض من يخيل لهم اني احتقرهم ، وحينما تندفع نفسي مع تيار البهجة ، هنالك انسى الخطى المتمالكة . اتقرب بفن وخيلاء ممن انالهم ، واعرض نفسي أقل ما اعرضها على من وهبتهم ذاتي ، واعتقد انهم يحسون ذلك في قلبي ، ويعلمون ان ما اعبر عنه بكلامي لا يستطيع ان يطابق ما اتصوره تمام

المطابقة .

لست اعرف شخصاً أجهل مني في ما يختص بأمور التأهيل ؛ والتوديع ، والاستئـــذان ، والتشكر ، والسلامات ، وعرض الخدمات ، هذه المجاملات المتكلفة التي تضج بها حضارتنا .

ولا اذكر اني اعطيت احـداً رسائل توصيـة ، لاني اعتبرها وسائل نابية ودنيئة .

اني اجد الايطاليين مـن اعظم ناشري الرسائـل الادبية ، فان لدي من هذه الرسائل ما يقارب المائة ، واحبهـا الي رسائـل الشاعر الايطالي (انيبال كارو Annibale Caro) .. لو كانت الرسائل التي سودتهـا للسيدات معدة للنشر ، حينما كانت قوة العاطفة تسيّر يدي ، لوجد شباب اليوم العاطفيون في هذه الرسائـل ما يملأ فراغهم ، ويمالق تدلههم . اكتب رسائلي دائماً في دار البريد بالرغم من ان خطي جـد رديء ، فاني لا اريد ان اكلف احداً بكتابة رسائلي ، لاني لا اجد من يستطيع ان يتبع املائي السريـــع . اني اجد فيه مقدمات الرسائل الرائجة في هذا العصر ، وزخارفهـا تزيد على موضوعها . اما في ما يختص بي ، فاني افضل ، حينما انتهي من موضوع رسالـتي ، ان اكلف غيري

باضافة هذه المقدمات المترسمة ، وهذه الزخارف الناقلة ، و رجو ان تُلغى هذه التقاليد يوماً ما .

في الصداقة

من الواضح ان الطبيعة اعدتنا للحياة الاجتماعية اكثر من اعدادها ايانا لاي شي آخر . يقول ارسطو ان خير المشترعين هم الذين اهتموا للصداقة اكثر مما اهتموا للعدالة،لان قصوى غاية العدالة هي البلوغ الى الصداقة . بيد ان الصداقات التي تنبع وتتغذى من الشهوة ، او المنفعة ، او الحاجة ، ولم تكن ، في الاساس ، لاجل ذاتها ، تفقد جمالها . وكذلك هذه الانواع الاربعة القديمة من الصداقة : الطبيعية والاجتماعية ، والضيافية ، والجنسية ، فانها لا تصلح لان تكون صداقة حقيقية ، سواء أكانت منفردة ام مجتمعة .

الاحترام هو اهم واجبات الأبناء نحو آبائهم ؛ اما الصداقة ، فانها تتغذى من التبادل النفساني الجامع الذي لا يمكن ان يقوم بينهم للتفاوت الحتمي الذي يميزهم ، ولان الصداقة تحول دون قيام الآباء والابناء بكثير من الواجبات الطبيعية بعضهم نحو بعض :فلا يمكن للآباء ان يبوحوا بجميع افكارهم للأبناء ، ولا يليق بالابناء ان

يبادلوا آباءهم النصائح والارشادات التي تشكل اولى واجبات الصداقة . لقد ُوجدت امم يقتل الابناء فيها آباءهم ، وأمم اخرى يقتل فيها الآباء ابناءهم،للتخلص من المضايقة التي بسببها ، في ظروف خاصة ، بعضهم لبعض. وقد وجد فلاسفة يحتقرون هذه الرابطة الطبيعية التي تربط الآباء والابناء بعضهم ببعض ، ومن بين هؤلاء الفلاسفة (اريستيب Aristippe) : فحينما كانوا يحدثونه عن المحبة التي يلتزم بها نحو بنيه لانهم خرجوا منه ،كان يبصق قائلاً : وهذا ايضاً خرج مني. ثم هذا الآخرالذي اجاب (بلوتارك Plutarque) حينما سأله ان يتصالحمع اخيه : « لا يقربه مني شيء ان نكون خرجنا من ثقب واحد » . بالحقيقة ، إن كلمة اخ جميلة ومفعمة بالعذوبة ، وعلى هذا الاساس بنينا تحالفنا، هو وانا ؛بيد ان اختلاط الارزاق ، وتقسيمها ، وأن يسبب غنى الواحد فقر الآخر ، ان كل هذا مما يوهي الرابطة الاخوية : ثم ، بما ان الاخوة مساقون ، في الغالب ، الى اتباع طريق واحد في تحقيق مستقبلهم ، فانهم يتعرضون للمنافسة ، وللتصادم ، ولضعف الايمان برابطة الاخوة : يمكن ان يكون الاب والابن مختلفين بنيةً ومزاجاً ، وكذلك

الأخوة . اقول : هذا ابني ، او هذا اخي ، ولكنه رجل فظ ، او رديء ، او أحمق . بقدر ما تحتم علينا رابطة الدم من التصادق ، بقدر ذلك يضعف اختيارنا ، وتُلجم حريتنا ، هذه الحرية التي تُبنى عليها كل مودة وكل صداقة . غير اني لم احجم عن بذل كل جهد في هذا السبيل من جهة ابي وهو خير الآباء وأشدهم عطفاً وتساهلاً ، حتى آخر ايام حياته ، بالاضافة الى كوننا من عائلة اشتهرت ، منذ القديم ، بحب أعضائها بعضهم لبعض .

ان جئنا نقابل بين الصداقة وبين الحب الجنسي ، فاننا لا نستطيع ان نضع هذا الحب في مرتبة الصداقة ، بالرغم من كونه اختيارياً . لا شك في ان ناره أحد وأعنف ، ولكنها اكثر تهوراً ، وخفةً ، وتموجاً ، وتقلباً ؛ انها نار حمى ، وعرضة للصعود وللهبوط ، ولا تأخذنا الا من ناحية واحدة . اما الصداقة ، فانها حرارة عامة وشاملة ، معتدلة وثابتة ، كلها عذوبة وصفاء ، بعيدة عن كل حدة ، وعن كل عنف . ليس الحب الجنسي سوى شهوة جامحة تعدو وراء ما يهرب منها ؛ لذلك ، حينما تبلغ مستوى الصداقة ، فانها

تتبخر وتتلاشى ويضيع الحب في اللذة والاكتفاء حيث يبلغ غايته الجسدية؛ اما الصداقة فانها ترتفع، وتتغذى، وتنمو مع لذتها ،لانها روحية تصقل النفس وتلطفها بقدر ما تنمو وتتأصل فيها. خلال هذه الصداقة التامة، الخالصة،

الكلام، هنا، عن صداقته مع اتيان دي لابويسي)، عرفت، في ما مضى، هذه العواطف الطائشة؛ اما هو، فلن اتكلم عنه، من هذه الناحية، لان اشعاره تزخر بها. لقد دخل هذا الميلان نفسي مع ادراكي لماهية كل منهما: كانت الصداقة تحلق عالياً فوق الحب وتنظر اليه بازدراء.

• • •

ان ما ندعوه، عادةً، اصدقاء وصداقات ليس سوى معاشرات ومؤالفات خلقتها ظروف ومناسبات اجتماعية، او مصلحية، او جوارية، الخ... اما الصداقة التي اتكلم عنها، هنا، فانها تصهر النفسين في بوتقة واحدة وتمزجها مزجاً شاملاً حتى تمحي معالم الاسباب التي جمعتها. لو الحوا علي في السؤال لكي اقول لهم لماذا كنت أحبه، لما استطعت ان ادلي الا بهذا الجواب: لانه كان هو؛ لاني كنت انا».

يوجد فوق كل ما استطيع ان اقول، لست ادري اية قوة خفيفة، حاسمة، كوّنت هذه الصداقة.

لقد كنا كأن كلاً منا كان يبحث عن الآخر من قبل ان يراه ، مدفوعاً بامر من العلاء لا مردّ له؛ كان اسمانا يتعانقان . يوم التقينا للمرة الأولى ، كان ذلك مصادفةً خلال احدى الحفلات العمومية الكبرى ، وحالما تعارفنا ، تصادقنا، وامتزج كل منا بصديقه حتى لم يبق شيء اقرب منه اليه . وقد كتب صديقي ، في ما بعد، يشرح السرعة الفائقة التي بلغت بها صداقتنا درجة الكمال . بما ان التقاءَنا جاء متأخراً ، وكنا قد تقدمنا شوطاً في السن ، فلم يكن علينا ان نضيع الوقت ،وان نتبع نهج الصداقات البطيئة ، الرتيبة ، التي تتطلب كثيراً من الحذر ومن الاختبار ، لان صداقتنا لم يكن لها غاية الا ذاتها . لم تكن اعتباراً معيّناً،ولا اعتبارين، ولا ثلاثة، ولا اربعة ، ولا الفاً : كانت الخلاصة الجوهرية لكل هذا المزيج وقد اخذت ارادتي ، واغرقتها ، ولاشتها في ارادته ، كما انها اخذت ارادته واغرقتها ، ولاشتها في ارادتي . اقول لاشت ارادة كل منا في ارادة الآخر،اي انها لم تترك شيئاً بيننا خاصاً به ، اوخاصاً بي.

...

لقد سارت نفسانا معاً باتحاد كامل ، وبمودة تحتل

اعمق اعماقها، حتى اصبح كل منا يعرف نفس الآخر كما يعرف نفسه ، وحتى اصبحت الجأ اليه من نفسي اكثر مما الجأ الى نفسي .

لقد عرفت صداقات اخرى ولكنها،رغم اخلاصها، لم تكن من ذات الطابع،لانها كانت من تلك الصداقات العادية التي ُيسار فيها بحكمة وحذر، والتي يقول فيها (شيلون chilon) : «أحب صديقك كأنك ستبغضه يوماً ما ، وأبغضه كأنك ستعود تحبه يوماً ما » . ان هذه القاعدة التي تبدو جد ممقوتة في مثل الصداقة الكاملة التي اتكلم عنها ، تستطيع ان تكون مفيدة في تلك الصداقات العادية التي قال فيها ارسطو: يا اصدقائي، انني لا صديق لي ! ».

ان الواجبات والخدمات التي تغذي الصداقات العادية كانت تنبع ، في صداقتنا نحن ، من اندغام ارادتينا اندغاماً تاماً . فكما ان محبتي لذاتي لا تزداد حينما اصنع جميلاً مع نفسي ، ولا تكلفني شكراً وعرفان جميل كذلك الصداقة التامة فانها تفقد معنى هذه الكلمات التي تدل على التمييز بين الصديق وصديقه ، مثل : فضل ، والزام، وعرفان جميل، ورجاء ، وشكر ، وما يشبه.

بما ان كل شيء مشترك بينهما بالفعل: ارادات ، وافكار ، وآراء ، وممتلكات ، ونساء ، واولاد ، وشرف ، وحياة ، وبما انهما ليسا سوى نفس واحدة في جسدين ، كما يقول ارسطو ، لذلك لا يستطيع احد منهما ان يعير الآخر شيئاً ، او ان يعطيه شيئاً ، ولذلك ، ايضاً ، ينهي المشترعون عن الهبات بين الزوجين لكي يحترموا شبه الزواج المزعوم مع رابطة الصداقة التامة ، هذه الرابطة الالهية ، ولكي يبينوا ان كل شيء يجب ان يكون لكل من الزوجين ، وان ليس لاحدهما شيء خاص به. الو كان في الصداقة التي اتكلم عنها يوجد شيء يمكن اعطاؤه ، لكان ، بالاحرى ؛ الفرصة التي يخلقها المعطى له للمعطي ، والسرور الذي يسببه له بقبول هذا العطاء.

* * *

لأن هذه الصداقة الكاملة التي اتكلم عنها لا تتجزأ : فكل من الصديقين يهب نفسه لصديقه كاملاً حتى لا يبقى له شيء للقسمة . اما الصداقات العادية ، فانها تتجزأ ، فيُحب في هذا ، مثلاً ، الجمال ، وفي ذاك دماثة الاخلاق ، والسخاء ، الخ . ، لكن هذه الصداقة التي تمتلك النفس كاملة فلا يمكن ان تتجزأ ، لانه ان طلب صديقك نجدةً منك في آنٍ واحد فالى من تهرع

اولاً ؟ او ان طلب منك كل واحد منهما شيئاً يناقض ما يطلبه الآخر ، فماذا تصنع ؟ وان أودعك احدهما سراً يهم الآخر ان يطلع عليه فهل تكتم هـذا السر عنه ام تفشيه له؟ان الصداقة المفردة تحل من جميع الالتزامات: فالسر الذي أقسمتُ بان لا ابوح به لاحد يمكنني ، من دون ان احنث في يميني ، ان أُطلع عليه ذاك الذي ليس سوى انا آخر : انه انا ايضاً . يالها من اعجوبة تجعل الاثنين واحداً !. انها اعجوبة لا يفهم سرها اولئك الذين يتحدثون عن اتخاذ اكثر من صديق ، فيجعلون من الصداقة جمعية كاملة ، اي من هذا الشيء الاشد وحدة واتحاداً والذي هو اندر من الغول والعنقاء .

• • •

في الصداقة الحقيقية التي انا خبير بها اعطي نفسي لصديقي اكثر مما اجذب صديقي الي ،وأحب ان أسدي اليه جميلاً اكثر مما أحب ان يُسدي الى ؛ وان كان غيابه عني يطيب له، او يفيده ، فاني استعذب غيابه، آنذاك ، اكثر مما استعذب حضوره . لقد استثمرت ، في ما مضى، فراقنا وارتحت اليه ،وكنا نملأ حياتنا اكثر ببعدنا الضروري عن بعضنا اذ كان يعيش ويرى لي ، كما

كنت اعيش وارى له ، كما لو كنا جنباً الى جنب . كان انفصالنا يضم نفسينا ضماً اشد ، وكنا نشعر بان هـــذا الجوع النهم الى الحضور الجسدي يـــدل على ضعف في الجوع الروحي .

في الحكمة

بقدر ما تكون الافكار المفيدة ممتلئة وعميقة ، بقدر ذلك تكون ، ايضاً ، شاقة . فالنقيصة ، والمـوت ، والفقر ، والامراض ، هي جميعهـا مواضيـــع خطيرة ومقلقة. يجب ان تكون نفسنا عليمة بالوسائل التي تمكنها من احتمال البلايا ومن محاربتها ، ومطلعة على القواعد التي تتيح لها ان تحيا حياة طيبة ، وان تؤمن الايمان اللازم، وان نوقظها ، في اغلب الاحيـان ، ونمرنهـا على هذا العلم الحكيم . بيد ان النفس العادية تفتقر الى ان تُعامل بالأناة والتؤدة لانها لا تستطيـــع ان تحتمل العناء المتواصل .

كنت ، في شبابي ، بحاجـة الى ان اعظ نفسي وأشحذها لكي تظل محافظة على واجبها ؛ فالبهجـة ، والصحة الجيدة لا تأنسان كثيراً ، كما يُقال ، الى هذه العظات الحكيمة ، الصارمة . اما الآن ، فقد تبدلتُ

من حالة الى حالة : فأوضاع التقدم في السن تعظني من ذاتها بما فيه الكفاءة ، وقد نقلتني من الانبساط المفرط الى الصرامة المفرطة . لذلك اراني بحاجة ، الآن ، الى مطالبة نفسي بالسعي وراء اللذة ، وأرغمها على العودة ، قليلاً ، الى احلام الصبا وشهواته ؛ ومع ذلك ، فلا ازال محروماً من إرضاء هذه الشهوات ، لان السنين تشيع في جسدي الجمود والقناعة أكثر فأكثر . يتهرب هذا الجسد من اتّباع الشهوات ويخشاها؛ فهو،بدوره ، يقود الروح نحو التقشف ولا يريحني ساعةً ، لا في يقظتي ولا في رقادي ، من فكرة الموت ، والصبر ، والتوبة . لذلك اراني بحاجة الى محاربة الافراط في التقشف كما كنت احارب ،في ما مضى ، الافراط في التلذذ،لاني ارى هذا التقشف الذي يدعوني اليه جسدي ، الآن ، يجرني نحو الموت اكثر منه نحو الحياة ، ولاني اريد ان اكون سيد نفسي في كل شيء. ان للحكمة ، ايضاً ، حدوداً، وهي تحتاج الى الاعتدال كما يحتاج اليه الجنون . اني اخشى ان اجف ، وانضب ، وأُثقل نفسي بالهموم والافكار العابسة ، لذلك الجأ ، خلال الهنيهات التي تتركها لي اوجاعي ، الى تسرية هذه الهموم عني وأُشيح

بوجهي عن هذه السماء الملبدة بالغيوم، المثقلة بالعواصف، الماثلة امامي . بيد اني لا انظر اليها بخوف ، ولا جزع، والحمدلله ، بل بعبرة واستقصاء .

لا ينظر الشباب الا الى الامام ، ولا ينظر المشيب الا الى الوراء . ان هذا ما يعنيه وجه جانوس المزدوج، كما في الاسطورة : تجري بي السنون ، اليوم ، ولكن الى الوراء . اني اتذوق ذكريات صباي واحلام ربيع حياتي حافظاً منها ، على الاقل ، في نفسي السقيمة ، تلك الصور الجميلة ، وذلك الرجاء الضاحك .

ينصح افلاطون الشيوخ بان يشهدوا ما يقوم به الشباب من تمارين ، ورقص ، والعاب ، لكي يتذوقوا في الغير مرونة الجسم ، وجماله ، وازدهاره ، تلك النعم التي حرمتهم السنون اياها .

كانت معظم ايام شبابي بهيجة ؛ ونادرة كانت ايامه العابسة ؛ اما اليوم فقد تبدل الزمن، وانعكست الآية : فارضى بالقليل من الفرح ، بل وأحسبني في نعمة حينما تهادنني اوجاعي . مهما جهدت في بعث الافكار المفرحة في نفسي فاني لا استطيع ان اجعل هذا الجسد اللعين يضحك وينبسط ؛ لذلك لا اذوق طعم الفرح واللذة الا

في الخيال . لا شك في ان محاربة جمود الشيخوخة باللجوء الى الخيال لا تكفي ، ولا بد من وسيلة اخرى اكثر جدوى ، وفعالية . من الجهل اطالة التفكير في المستقبل العابس ، واستباق الهموم بالخوف منها . انا لا اترك اية فرصة سرور او لذة تفوتني . اني اعرف انواعاً كثيرة من اللذائذ البريئة ، والعميقة ، وحتى المجيدة في نظر الناس ؛ ولكن الرأي العام لا سلطة له علي لكي يثير شهوتي نحو مثل هذه اللذائذ ، بل ان شهوتي تميل من طبيعتها الى اللذائذ الناعمة ، الهنيئة ، الجاهزة .

ان فلسفتي فلسفة عاملة ، واقعية ، لا فلسفة خيالية ؛ فلربما طاب لي ان العب بالخذروف ، او بالكعاب .

لا تتصف اللذة بالطموح : انها غنية بذاتها ولا تحتاج الى الصيت الذائع ، والاسم الطنان ، بل تفضل الاخلاد الى الظل .

ان الشاب الذي يبحث عن الطعام الشهي ، والمقبلات ، لكي يتنعم بالاكل والشرب ، يستحق السوط . انه حقير . لم اكن كذلك في شبابي ؛ اما الآن ، فقد اضطرتني السنون الى البحث عن طيبات

الارض ، ولذائذ المائدة. اني اخجل من نفسي ، ولكن ما العمل ! بل اراني اخجل من الظروف التي اضطرتني الى هذا السلوك اكثر مما اخجل من هذا السلوك ذاته . يحق لنا ، نحن الشيوخ ، ان نحلم ونلهو ويترتب على الشباب ان يهتم للمستقبل،وللصيت الحسن: يسير الشباب نحو العالم ، نحو التقدير ؛ اما نحن ، فاننا عائدون منه . ان سنن الطبيعة ذاتها تحيلنا على التقاعد .لست استطيع، في هذه الظروف العسيرة التي رمتني فيها سني ، ان امنع نفسي من ان تتلهى ، ان هي شاءت ، بالالعاب ، وبالدمى ، كالاطفال الذين اصبحت نفسي مثلهم .

اني اتحاشى ، كذلك ، أخف وخزة ؛ فالوخزة ، من اي نوع كانت ، التي كنت لا اكاد اشعر بها في شبابي ،انها تصمي ، الآن ، قلبي .

كنت ، في مضى، غارقاً في خيلائي ، شديدالحفاظ على كرامتي ، رهيف الشعور بما يمكنه ان يمس شرفي ، ولو من بعيد ؛ اما الآن ، فقد خفضت جناحي للجميع وخففتُ من غلوائي . يمنعني تعقلي، اليوم ، من التمرد على الصعوبات التي تفرضها علي الطبيعة في مثل سني ؛ ولكنه لا يستطيع ان يمنعني من مقاساتها !

كنت اجوب الارض مـــن قطر الى قطر لاقضي بعض الوقت في حياة صافية ، مرحة ، انا الذي ليس لي من غاية سوى الحياة والتمتع بالحيـاة : ان الحياة في الهدوء والسكينة الجامدة لا تنقصني ، ولكنها تملني ، وتغريني بالرقاد .

بما ان للروح مقدرة التمرد على الشيخوخة ، فاني الجأ الى هذه الروح لكي تنعشني ، واستند اليها كما تستند نبتة اللبلاب الى الشجرة المائلة؛ ولكني اخشى ان تغدر بي روحي : لقد آخت هذا الجسد حتى انها تتركني في كل حين لكي تتبعه . اني احاول ان اصرفها عن هـذا الالتصاق بجسدي ، فاقـــدم لها سينيك ، وكاتول ، والحسان ، ورقص القصور ، ولكنها ، ان شاء رفيقها المسكين ان يمغص ، فاني اراها تمغص هي ايضاً .

يخطىء معلمونا حينما يبحثون عن اسباب اندفاعات روحنا ، وانطلاقاتهـا المدهشة ، فينسبونها إما الى الانخطاف العلوي ، وإما الى الحب ، وإما الى الحماسة الحربية ، وإما الى الشعر ، وإما الى الخمر ، ولا ينسبون شيئاً من ذلك الى الصحة ، الى تلك الصحة العارمة ، الزاهية ، الممتلئة نشاطاً التي تمتعت بها في شبابي .

احب الحكمة الضاحكة ، الاجتماعية ، وأنفر من الصرامة والتزمت ،واجد كل سحنة عابسة مريبة .

اني اوافق افلاطون كل الموافقة حينما يقول ان الطباع السهلة تدل على طيبة النفس،وان الطباع الصعبة تدل على رداءتها . كان لسقراط خلق ثابت، ولكنه خلق صاف، ضاحك؛وكان للشيخ (كراسوس Crassus) خلق ثابت، ولكنهم لم يروه ، يوماً ، ضاحكاً .

ان الفضيلة هي شيء باسم.

اعرف جيداً ان ثمة اناساً يعيبون علي اباحية اقوالي، بينما هم لا يعيبون على انفسهم اباحية افكارهم. اني، اذن، اوافق افكارهم واخالف انظارهم .

اني اكره الوجه العابس ، الحزين ، والنفس التي تقفز من فوق لذات الحياة لكي تتمسك بالهموم والتوجع. لقد عاهدت نفسي على ان اقول بجرأة كل ما اجرؤ على فعله ، واكره الافكار والمقاصد المتسترة ، وارى ان اشنع اعمالي يظل اقل شناعة من الجبن الذي يدفعني الى عدم الاعتراف به . يخاف الناس الاعتراف باعمالهم السيئة ، ولكنهم لا يخافون الاقدام عليها . ان الجرأة على اقتراف الزلة تتلطف ، وتُلجَم ، نوعاً ما ، بالجرأة

على الاعتراف بها:فالذي يرغم نفسه على ان لا يكتم من اعمالها شيئاً ، يرغمها ، في ذات الوقت ، على الا تعمل ما يلزمها كتمانه . اني اطلب من الله ان يجعل افراطي في البوح يدفع الناس الى التحرر من هذه الجبانات الحقيرة النابعة من نقائصنا والتي يدعونها فضائل . يجب على الانسان ان يدرس نقيصته ويحللها لكي يستطيع ان يقولها ، لانه حينما يكتمها عن الغير فانه يكتمها ، في الغالب ، عن نفسه لكي لا يراها ، هو ذاته ، فيخدع بذلك ضميره . تتضح امراض الجسد بحسب اشتدادها ، لاننا نستطيع ، آنذاك ، ان نقارن بينها ؛ اما امراض النفس ، فانها تغمض وتتبهّم حينما تشتد : فالنفس الاكثر امراضاً تصبح الاقل شعوراً بأمراضها ؛ لذلك يجب علينا ، من حين الى حين ، ، كشف امراض نفسنا ، واظهارها الى النور ، واقتلاعها من صدورنا بيد لا ترحم .

ليس الموت غاية الحياة

ان حاستنا بوجود الموت وحضوره تجعلنا ، احياناً، نقصد ألا نتجنب ما لا يمكن تجنبه .لقد شوهد كثيرون من المتصارعين ، في العصور القديمة ، بعد ان أظهروا

كثيراً من الجزع في القتال ، يسارعون الى اعتناق الموت بشجاعة ، مادّين اعناقهم إلى الذبح . بيد ان النظر إلى الموت من بعيد يتطلب ، لأجل الرضوخ له، حزماً ، وصموداً عسيرين . ان كنت لا تعرف ان تموت ، فلا تهتم لذلك . فستعلمك اياه الطبيعة في حينه ، تمام العلم . اننا نشوّه الحياة بفرط الاهتمام بالموت ، ونشوه الموت بفرط الاهتمام بالحياة : فالحياة تضجرنا ، والموت يرعبنا. لسنا نستعد لمواجهة الموت ذاته ، انه هنيهة وتمضي ، ولكننا نستعد لاقتبال فكرة الموت . تعلمنا الفلسفة لن نضع الموت ، دائماً ، نصب اعيننا ثم تقدم لنا ، بعد ذلك ، من النصائح ما يحول دون إلحاق فكرة رضوخنا للموت الضرر بسعادتنا .

ان هذه الفلسفة تحذو بذلك حذو اولئك الاطباء الذين يدخلون الداء أجسام الناس لكي يتاح لهم ان يجربوا بهم عقاقيرهم وشطارتهم . ان نحن لم نتعلم ان نعيش ، فمن الظلم ان نتعلم كيف نموت وان نشوه غاية وجودنا ؛ ولكن ، ان نحن تعلمنا كيف نعيش بثبات ، وراحة ، فاننا سنعرف، ايضاً ، كيف يجب ان نستقبل الموت. انني على يقين من ان الموت هو نهاية الحياة فقط، لا غايتها ، لأن الحياة يجب ان تكون هي غاية ذاتها .

ولكن مواجهة الموت بلا خوف، ولا جزع، حينما تحين ساعته المحتومة، هي عنصر من عناصر علم الحياة، وقاعدة من اسهل قواعد هذا العلم يوم ننزع من انفسنا الرعب الذي تلقيه مواجهة الموت في مخيلتنا.

لا تنحط دروس البساطة مقاماً، من حيث الفائدة والحقيقة الساذجة، عن دروس العقائد المتأصلة، بل بالعكس. يختلف الناس اذواقاً ومواهب، لذلك يجب توجيههم الى خيرهم بالنسبة الى ما هم عليه روحاً وجسداً. لم ار قط احداً من الفلاحين جيراني يهتم كيف يقضي ساعته الاخيرة، فالطبيعة تعلمه الا يفتكر بالموت الا وهو يموت؛ فهو يبدو، بذلك، اكثر حكمة من ارسطو الذي قاسى اكثر من موت واحد بتحسبه للموت. ألسنا نقول ان بلادة عقول عامة الناس، او قلة تفكيرهم، هي التي تمنحهم هذه اللامبالاة العميقة باحداث المستقبل وبلاياه، وان غلاظة نفوسهم تبدو كأنها درع تقيهم سهام الاضطرابات، ونصال الهموم؟ الله! ان يكن ذلك كذلك، فما احرانا، منذ الآن، بان نقيم مدرسة تعلمنا غلاظة النفوس، لان الثمار التي تعدنا الفلسفة بقطافها، هي التي تقدمها لنا هذه الغلاظة على طبق.

لا تقوم عظمة النفس بطلب الامجاد الطنانة بقدر ما تقوم بالاتزان ، وبالتغلب على الاهواء ؛ انها تعتبر كل ما يكفي كبيراً،و'تظهرسموها بحب الاشياء المعتدلة اكثر من الاشياء الرائعة . لا شيء اجمل من ان يعيش الانسان حياته الانسانية كاملة ، ولا أعقل من ان يعيشها طبقاً لمتطلباتها الطبيعية . ان أشد امراضنا احتقارنا لكياننا الطبيعي . من يرد ان يعزل نفسه عن جسده فليعزلها بجزم وشجاعة ، ان استطاع ، حينما يسوء الجسد مقصداً ، لكي يجنبها العدوى ؛ اما حينما يكون الجسد سليماً من كل شائبة وانحراف ، فعلى النفس ان تعينه وتسانده ولا ترفض مقاسمته ملذاته الطبيعية والتمتع بها معه كما يتمتع الزوجان بملذاتهما المشتركة، حتى اذا كانت اعقل من الجسد اضافت اليه الاعتدال لئلا يقعا معاً في مهاوي الافراط والمغامرات الشهوانية . ان الافراط هو وباء اللذة ، وليس الاعتدال عدوها ، بل ملحها . اني اهيب بنفسي لكي تنظر الى الالم واللذة ذات النظرة المعتدلة ، الحازمة، ولكن لكي تنظر برفق الى الاول، وبصرامة الى الثانية ،محاولة في ذات الوقت، وعلى قدر

لخالقتها ، إنماء هذه ، والتخلص من ذاك.

لاجل احتمال نقائص الآخرين

كل انسان يستطيع ان يقول الحقيقة : ولكن القليل من الناس من يستطيع ان يقولها بنظام ، وحكمة . ان الخطأ الناتج عن الجهل لا يغضبني ، بل سوء النية . لقد نقضت صفقات كثيرة مفيدة لي ولمن كنت اتعامل معهم لتبب بلاهة وتعنت هؤلاء . لست أغضب لأخطاء من لي عليهم سلطان، ولكن ، ولعنادهم ، لا يلتطم رأسي الا بالرأس العنيد ، واصفح عن نقائص رجالي ؛ ولكن لا عن تهورهم : ليعملوا قليلاً ، ولكن ليعملوا حسناً .

بيد ان من الظلم ألا نرى حسناً إلا ما يطابق افكارنا، وألا نحترم إلا كل من يحترم آراءنا ، وأن نتناسى ان لكل انسان الحق بان يكون كما كونته طبيعته .

قيل للفيسوف ميزتون ، وهو احد سبعة عقلاء اليونان : « مما تضحك لذاتك ؟ » ، فأجاب : « من اني اضحك لذاتي » .

الخلاصة ، يجب ان نحيا بين الاحياء ، وان نترك المياه تجري في مجاريها من غير ان نعكر صفوها ، على الاقل . لماذا لا نستطيع ان نرى ، دون امتعاض ،

جسماً مشوهـا ، او ، دون غضب ، نفساً مشوَّهة ؟ ان هذا الخطأ في الحكم هـو ذنب القاضي ، لا ذنب المحكوم عليه. ليردد كل منا الكلمة التي فاه بها افلاطون: « ان كنتُ ارى الاشياء سيئة ، أليس ، في الغالب ، لاني انا سيّء ؟ ». ياهذه الكلمة من سوط يلذع ضلالات البشر !

ان أعيننا لا ترى وراءهـا ، فنسخر مائـة مرة في النهار من انفسنا في حديثنا عن جيراننا ، ونكره ، في الآخرين النقائص التي تبدو فينا أوضح ، والتي نفتخر بها بوقاحة . رأيت البارحة رجـل فكر ومقام يسخر من احد صغار النبلاء لإبرامه الناس بسلسلة أنسابـه النبيلة ، ولو انها نِصف مزيفة. ولكن ، من يتربص بمثل هذه الاخطاء لكي ينقض عليها نقداً وسخرية يكـن ، في الغالب ، اقل تواضعاً ، واكثر تبجحاً . فـلو أفسح المجال لصاحبنا ، رجل الفكر والمقام لكي يتكلم عن نفسه ، لزاد على الاول عجرفة ، وزيفاً ، وابرامـاً ، وتبجحاً ؛ ولكن ، هل تعلم بماذا كان يفتخر ؟ بعائـلة زوجته النبيلة ، فيضفي عليها الالقاب الشرفية من غير حساب .

لست اتطلب ممن ينتقد الآخرين الا يكون عرضةً ،
هو ذاته ، للانتقاد ؛ وإلا ، لما حق لاحد ان ينتقد
احداً ، بل اطلب منه ألا يقسو على غيره بقدر ما
يتسامح مع نفسه في الحكم . مما يشوب محبتنا للقريب
اننا نسعى الى اصلاحه من نقيصة لا نسعى ، نحن
المبتلين بها ايضاً ، الى اصلاحنا منها . لو كان لنا حاسة
شم صادقة ، لاستنشقنا ما ينبعث منا من روائح كريهة
بقدر ما هي منبعثة منا ، ولانها منبعثة منا .

مونتاني وباريس

لن اثور ابداً على فرنسا طالما انا ناظر الى باريس
نظرة رضى ؛ اني شُغفت بها منذ صباي . مهما شاهدت
مدناً جميلة في العالم يظل جمال باريس مالكاً علي لبي
واعجابي . اني أحبها لذاتها مجردة من كل فخفخة
وابهة ، أحبها حتى في شوائبها ، وفي نقائصها . لست
فرنسياً الا بها ؛ انها كبيرة بشعبها ، كبيرة بجمال
موقعها ، وكبيرة ، على الاخص ، ولا شبيه لها، بتنويع
ملاذها وملاهيها. انها مجد فرنسا ، وأحد أنبل زخارف
الدنيا . ليبعد الله عنها جميع الانشقاقات ؟ اني لا
اخاف عليها الا من نفسها ، ولا ارضى بسواها مقر عزلة

وراحة لما بقي من ايام حياتي .

مونتاني مواطن عالمي

قيل لسقراط : « من اين انت ؟ » ، فلم يقل : « من اثينا » ، بل قال : « انا من العالم » . ليس لان سقراط قال ذلك ، بل لميل طبيعي في نفسي ، اعتبر جميع الناس مواطني ، واعانق البولوني كما اعانق الفرنسي ، بالغاً بالرابط الوطني الى الشمول . لقد وضعتنا الطبيعة في العالم احراراً ، غير مقيدين ؛ ولكننا نسجن انفسنا بايدينا في مضايق معينة ، مثل اولئك الملوك الاعاجم الذين كانوا يلزمون انفسهم بألا يشربوا الا من مياه نهر شواسباز ويحرمونها من اية مياه أخرى حتى لتبدوا بقية العالم ، في انظارهم ، صحراء جافة !

مونتاني يمر بمدينة دومريمي

... واجتزنا نهر الـ(موز Mense) الى قرية دومريمي التي تبعد ثلاثة اميال عن مدينة فوكولور (Vocouleur) والتي رأت فيها النور الابنة الشهيرة باسم (بوسيل دورليان Pucelle d'Orléans) ، او فتاة اورليان العذراء ، والتي تدعى جان دارك ، او دولليس «Dullis» . وقد رفع الملك عائلتها ، في ما بعد ، الى

مرتبة النبالة ،وارانا ذووها شعارات النبالة التي منحهم اياها امر صادر عن الملك ، وهي مؤلفة من لون ازرق سماوي ، ومن سيف مستقيم ذي قبضة ذهبية ، ومن زهرتي زنبق ذهبيتين الى جانب السيف المذكور . وقد رسم الرسامون على مقدمة البيت التي وُلدت فيه جان جميع الاحداث العظمى التي مرت بها ، ولكن الزمن شوّه هذه الرسوم . ويوجد هناك شجرة قديمة يدعونها « شجرة فتاة اورليان العذراء » (l'Arbre de la Pucelle) ، ولا ميزة لها سوى ذلك

البابا غريغوار الثامن يستقبل مونتاني في رومية

في ٢٩ كانون الاول ، اراد السيد دابين (M. d'Abein) ، الذي كان ، آنذاك ، سفيراً ، وهو رجل نبيل ومثقف وصديق حميم للسيد دي مونتاني ، ان يذهب لكي يلثم اقدام البابا . فركب السيدان دستيساك ودي مونتاني في عربة السفير ؛ وحينما وقفا في حضرة البابا ، وجداه ومعه السفير وحده ، كما هي العادة . كان بقربه جرس صغير يقرعه حينما يريد ان يدعو احداً . كان السفير جالساً عن يساره مكشوف

الرأس ، لأن البابا لا يكشف رأسه امام أحد ، ولأن أي سفير لا يقف في حضرته الا مكشوف الرأس .
دخل السيد دستيساك اولاً ثم تبعه السيد مونتاني ، ثم السيدان دي متكولون ودي هوتوا . كان جميع الذين يدخلون ، اياً كانوا، بعد ان يخطوا خطوتين في القاعة التي يجلس البابا في احدى زواياها ، يجثون على ركبة واحدة وينتظرون بركة البابا ، فيعطيها حالاً . وبعد ذلك ، ينهضون ويمشون حتى منتصف القاعة . صحيح ان معظم الزوار لايسيرون نحو البابا على خط مستقيم عبر القاعة ، بل ينحرفون قليلاً الى الشمال ، على طول الجدار ، وبعد هذه الدورة ، يسيرون رأساً باتجاه البابا اما الذين يبلغون منتصف القاعة ، فانهم يجثون ثانية على ركبة واحدة ويتقبلون بركة البابا الثانية . وبعد ذلك يقتربون منه حتى طرف بساط طوله نحو سبعة او ثمانية اقدام ممتد تحت اقدام البابا ، وهناك يجثون على الركبتين . حينئذٍ قام السفير الذي كان يقدمهم الى البابا فجثا على ركبة واحدة وكشف طرف رداء البابا عن رجله اليمنى

وهي داخل حذاء مخملي احمر عليه صليب ابيض . فالجاثون يزحفون على ركبهم حتى يبلغوا الصليب فينحنون ويلثمونه واحداً واحداً. اما السيد دي مونتاني فقال ان البابا رفع طرف رجله قليلاً امامه . بعد ذلك عاد السفير فغطى رجل البابا ثم وقف يوصيه بالسيدين دستيساك ودي مونتاني . حينئذٍ ابتسم البابا ووعظ السيد دستيساك واوصاه بالدرس والفضيلة ، ثم طلب من السيد دي مونتاني بان يحافظ على تعلقه بالكنيسة وعلى امانته واخلاصه في خدمة ملكه المسيحي ووطنه فرنسا ابنة الكنيسة البكر . اما هما فلم ينبثا ببنت شفة ، فباركهما البابا بركة اخرى قبل ان ينهضا ، وهـذه البركة علامة الاذن بانصراف ، ثم عادا كما اتيا . يستطيع كل زائر ان ينصرف حسبما يشاء، ولكن العادة المتبعة، غالباً ، ان يرجع القهقرى وهو ناظر الى البابا ؛ وعند وصوله الى منتصف القاعة يجثو مجدداً على ركبة واحدة ويقتبل بركة جديدة ، وعند الباب يجثو ، لآخر مرة ، على ركبة واحدة ،و ويقتبل آخر بركة .

مراجع الكتاب

BIBLIOGRAPHIE

P. STAPFER, Montaigne. 1896·

P. BONNEFON, Montaigne et ses amis, 1898.

P. BONNEFON, Montaigne, l'homme et l'œuvre 1893.

E. COURBET, Biographie de Montaigne, 1900

A. LAMANDÉ, La vie gaillarde et sage de Montaigne, 1927;

PAYEN, Recherches sur Montaigne, 1868.

SAINTE-BEUVE, Port-Royal (t. II).

Edme CHAMPION, Introduction aux Essais de Montaigne, 1900

EMERSON, Les Surhumains, trad. par IZOULET.

Pierre VILLEY, Les sourses et l'évolution des Essais de Montaigne. Les livres d'histoire moderne ulilisès par Montaigne, 1908.

F. STROWSKI, Montaigne, 2e édit, 1931·

فهرست

ص

١٩٦١/١٢/٤٧

MONTAIGNE

SA VIE

SON ŒUVRE

SA PHILOSOPHIE

EDITIONS OUEIDAT

BEYROUTH - PARIS

مونتاني

* عظمة الفلسفة/كارل ياسبرس
* فلاسفة انسانيون/كارل ياسبرس
* الفلسفة والتقنيات/جان ماري اوزياس
* معرفة الغير/ريمون كاربانتييه
* معرفة الذات/ماري مادلين دافي
* علم النفس التجريبي/بول فريس
* المسألة الفلسفية/د. محمد عبد الرحمن مرحبا
* الفلسفات الكبرى/ بيير دوكاسيه
* الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر/جان فال
* تأملات ميتافيزيقية/رنيه ديكارت
* الانسان المتمرد/البير كامو
* فلسفة العمل /هنري آرفون
* الفكر الفرنسي المعاصر/ادوار موروسير
* الاخفاق/جان لاكروا
* نقد المجتمع المعاصر/ريمون روييه
* الايديولوجيات المعاصرة/ريمون روييه
* الممارسة الايديولوجية/ريمون روييه
* حوار الحضارات/روجيه غارودي
* الخطوط الاولى لفلسفة ملموسة/غبريال
* من الرأي الى الايمان/غبريال مارسيل



EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris